

د. كاثرينا ممسين

جوته.. والإسلام

رؤية قديمة لعالم معاصر

ترجمة
شيرين حامد فهمى



جوته.. والإسلام

رؤية قديمة لعالم معاصر

د. كاثرينا ممسين

ترجمة: شيرين حامد فهمى



جوته..رؤية قديمة لعالم معاصر

«الشرق والغرب لم نعد نستطيع فصلهما»، هذا ما كتبه جوته فى عام ١٨٢٦م فى الجزء الثانى من تراچيديا «القبضة» أو «فاوست»:

من يعرف نفسه و غيره

سيعرف هنا أيضًا

أن الشرق والغرب

لن يفترقا أبدًا

هذه الكلمات تخص «القبضة»، وهى من أعظم الأعمال الأدبية التى كتبها «جوته». ذلك الشاعر الأديب ـ الذى كان «يعرف نفسه» جيداً، وهو فى عامه السابع والسبعين، الأمر الذى ولّد لديه الإدراك العميق بأن «الشرق» (والذى كان يمثل فى هذه الحالة العالم العربى بالدرجة الأولى) هو المحرك الذى كان طالما يثير تلك العبقرية الفنية التى تمثلت فى «القبضة»، حيث كان يستمتع دومًا باستخدام الصور الإبداعية والألوان

الجمالية المستوحاة من الشرق، والتى لم يكن لها وجود فى الشعر الغربى من قبل. ومن ثم، قدم لنا «جوته» - فى الجزء الثانى من «القبضة» - خليطًا منسجمًا رائعًا، يجمع بين المكونات الغربية والمكونات الشرقية النموذجية.

لم يدُرْ فى خلد «جوته» - فى حديثه عن الشرق والغرب - مسألة «إما.. أو». فالعالمان بالنسبة له لم يكونا منفصلين، وهو كمفكر وكشاعر غربى، أدرك جيدًا - فى قرارة نفسه - بأنه مدين، وبشدة، إلى الشرق، الذى أوجد لديه ذلك الثراء الروحى. وقد أثبت وبرهن المقطع الشعرى الرباعى أعلاه، إلمام «جوته» ومعرفته بعدم وجود أى انفصال بين الشرق والغرب؛ وقد عاد الشاعر الأديب ليؤكد هذا المعنى ثانية، عندما قام بإضافة أربعة أبيات أخرى، التى دعت البشر جميعًا إلى التحرك بخفة ومرونة - ذهابًا وإيابًا - «بين الشرق والغرب»، بحيث يصير هناك عملية «توازن» بين العالمين:

وبودى أن أتأرجح بفكر متفتح

بين هذين العالمين

فالتحرك بين الشرق والغرب

هو الأفضل!

إنه لمن الضرورى أن نتحرك بين العالمين بتعقل وهداية، وأن نزن الأمور بحكمة وتمهل، بتأن وروحانية، باتساع فى الأفق وفى الوقت.

فى ظل هذا الشرط فقط، يمكن للعلاقات بين الشرق والغرب أن تصل إلى «الأفضل».

بهذه الأبيات، استطاع «جوته» - المُعلم القديم - أن يُعلى من توجهه «الغربى - الشرقى»، فينقله من مجرد رؤية إلى برنامج يلوح فى الأفق. وهذا ما تعبر عنه الأبيات التالية، التى كان قد كتبها على غلاف «القبضة»:

وهكذا الغرب مثل الشرق

فتذوق ما هو مجرد برىء.

اترك الشواء، اترك القشرة،

وأَجْلِسْ نفسك عند صحن طحين:

ولا تكره هذه القصعة

كما نرى هنا، يدعو «جوته» أهل بلدته إلى الجلوس، بثقة، بجوار ذلك الطحين الكبير للأدب العالمى، ومن ثم عدم الاكتراث بتلك «القشرة» غير المعهودة - التى تمثل الإطار الخارجى للأدب الشرقى - وإنما الابتهاج بما هو «مجرد» و«برىء» فى ذلك الصحن الكبير. مثله مثل عدد غير كبير من الألمان، كان «جوته» يدرك جيداً الدعم الهائل، والسند الضخم، الذى قدمته الثقافة العربية - خاصة فى مجال الشعر - للأدب

الألمانى، بل للأدب العالمى ككل. لقد كان يعترف اعترافًا صريحًا - لا يخلو من شكر أو تقدير - بذلك الفيض الذى أفاض به الشرق، وجاد به على أوروبا؛ **الأمر الذى يستلزم منا اليوم، تجديد وإنعاش ذاكرتنا بخصوص هذا الدَّيْن الثقافى، وإعطاء العرب حقهم الذى يستحقونه، ومكانتهم التى يستحقونها عن جدارة فى الأدب العالمى؛ وهذا عكس ما كان يحدث حتى هذه اللحظة.**

وفى هذه المرحلة الزمنية، التى نعايشها اليوم، والتى نشهد فيها مواجهات ظاهرة بين الإسلام وبين العالم الغربى، نجد أنه من المناسب ومن المنطقى - فى هذا الوقت بالذات - التأمل والتفكر فى موقف «جوته» تجاه الدين الإسلامى، وتجاه مؤسسه النبى محمد ﷺ؛ ذلك الموقف الذى أشار إلى وجود احتمالات للتواصل السمح والنقاش الإنسانى مع الإسلام. وفى جميع الأحوال، كان الموقف الذى اتخذه «جوته» تجاه الإسلام خاليًا تمامًا من التطرف الأصولى. وكان بدلاً من ذلك، يصوب أعيننا ويلفت أنظارنا - وخاصة فى «ديوان الغرب والشرق» - إلى عوامل التآلف والانسجام بين الثقافات المختلفة، متجنبًا عوامل الفرقة، التى كان من المعهود إثارتها فى عصره. ربما يكون من الضرورى ومن اللازم فى هذه الحقبة التاريخية بالذات، أن نستعيد أفكار «جوته» إلى الأذهان، كسبيل لإعادة فتح فرص حقيقية للتقارب بين العالمين، كما كان يدور فى خلد «جوته» دائمًا.

منذ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، ونحن نشهد حدة متصاعدة فى الاستقطاب بين العالمين الإسلامى والغربى، والتى تولدت نتيجة للفقر الواضح فى فهم ثقافة الغير، وفى فهم دين الآخر. هذا بالإضافة إلى افتقاد النضج الكافى للرؤية الكاملة من قبل الجانبين، الأمر الذى من شأنه أن يهدد باتساع الفجوة الثقافية بين العالمين، على المدى البعيد، مما يجعل الحدود بينهما تأخذ بعداً عدائيّا خطيراً؛ ليسقط العالم بعدها فى دوامة من الصراع، لا تنتهى أبداً. هل كان «جوته» يتنبأ بتلك الصراعات، التى نلمسها اليوم بين كل همسة ولحظة؟ هذا سؤال، بالطبع لن نستطيع التعرف على إجابته. إلا أننا ـ على الوجه الآخر ـ نستطيع أن نتأكد، وأن نتيقن، من سبق هذا الرجل فى إدراك ضرورة وحتمية التساوى السلمى بين «الشرق» و«الغرب»؛ وكذلك من سبقه فى البحث ـ بل والعثور ـ عن طرق للتوسط بين العالمين؛ وهى طرق يمكن سَلْكُهَا وتطبيقها فى زماننا الحالى. . زمن العولمة والعالمية. نحن عندما نتحدث عن «جوته»، فنحن لا نتحدث فقط عن أنجب الأدباء الألمان، وأكثرهم عالمية، بل نتحدث أكثر عن الأدب، وعن تاريخ الديانات؛ نتحدث أكثر عن الطبيعة الإنسانية، التى تظل ثابتة على حالها، مهما كانت الظروف، إن الطبيعة الإنسانية تمثل مجال الإبداع لدى «جوته»، حيث سطع فيه عن جدارة. . . أكثر من أى مجال آخر.

وإذا ألقينا نظرة عابرة إلى الوراء، لرأينا ولعرفنا كيف كان الأدب الألمانى مديناً إلى نظيره العربى بالشكر والعرفان. صحيح أن تقدم العرب

ـ فى القـرون الأولى من الإسـلام ـ فى جنوب غـرب وجنوب شـرق أوروبا قـد أدى إلى تماس عـدائى بين الفـريقـين ؛ وصـحـيح أن اندلاع الحروب الصليبية الأوروبية ، التى اتخذت من القدس هدفًا لها ، قد أدى إلى احـتكاكـات مريرة بينهـمـا ، مع عـواقب أكـثـر مـرارة ، إلا أن هذه الاحتكاكات المريرة قد أسفرت أيضًا عن نتائج إيجابية ؛ منها تغلغل وتسلل تلك الصور الإبداعـية العـربيـة الجـميلة ـ حـينذاك ـ فى داخل الملاحم البطوليـة الألمانيـة ؛ مـثل ملحـمـة «شـبيل مـان ـ Spielmann» الشـهـيـرة . فـلا عـجب أن نعـرف مـثـلاً ، بأن «هـاينريش فـراوين لوب ـ Heinrich Frauenlob» قـد اسـتـمـد إطاره القـصـصى من «ألف ليلة وليلة» ، ولا عـجب أن نعلم ، بأن «العـرب» كـان لهـم دلالة كـبيـرة فى الملحمة الألمانية العظيمة ، التى كتبها «فولفرام فون إيشينباخ ـ Wolfram von Eischenbach» ، ولا عـجب أن نكتـشف ، بأنه منذ الحـروب الصليبية ، كانت ملحمة «شبيل مان» قد ازدحمت بالقصص ذات الطابع الخيالى ، الملىء بالسعادة الغامرة لكل ما هو عجيب وغريب ؛ باختصار ، أن ملحـمـة «شـبيل مـان» قـد حفلت بتلك الأشكال الأدبية التى وُجدت بالفعل فى المخطوطات العربية القديمة لقصص «ألف ليلة وليلة» . **إلا أنه ـ بالرغم من كـل ذلك ـ كـان رد فـعل الألمان، كـجـمـيع الشـعـوب الأوروبية، باسـتثناء الإسـبـان، هو طمس وحذف ذلك الدَّين الثقـافى تجاه العرب، من العقـول، بل من الوعى الجمعى ككل؛ فتم نكران تأثير الثـقافة الإسلامـيـة على ثقافتهم بمنتـهى السهولة، وتم الجحود بـالفضل الإسلامى على علومهم بمنتهى البساطة.**

إلا أن الأمر لم يخل من الحالات الشاذة التى يجب ـ بكل تأكيد ـ أن تسترعى انتباهنا. فقد يأتى «جوتهولد إفرايم ليسينج» (١٧٢٩ ـ ١٧٨١م) ليتربع على عرش القمة، حيث قام فى روايته الدرامية المعروفة «ناتان الحكيم» (١٧٧٩م) بوضع الأديان السماوية الثلاثة (اليهودية، المسيحية، الإسلام) على أرض واحدة، مساويًا بين بعضها البعض. ولم تقتصر نظرة «ليسينج» هذه ـ التى تتسم بالتسامح ـ على هذه الدراما، بل امتدت إلى كتاباته الأخرى. وكذلك لدينا «يوهان جوتفريد هيردير» (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣م) الذى استطاع ـ بالرغم من الفكر الپروتستانتى الذى تربى عليه ـ أن يثبت نفسه كمؤرخ ثقافى غير منحاز للقوالب الموروثة المؤدلجة، الأمر الذى تجلى، بمنتهى الشجاعة، فى عمله حول «تأثير الفنون الشعبية على عادات الشعوب فى العصور القديمة والجديدة»؛ فقال: «حينما غمر العرب جزءًا من أوروبا ـ ليقيموا فيها مئات السنين ـ لم يكن بوسعهم أن يخلفوا شيئًا وراءهم . . . إلا الآثار . . . آثار فنونهم الشعرية، وكذلك آثارهم العلمية . . إلا أن فنونهم الشعرية كانت أعمق أثرًا من علومهم . . تلك العلوم التى نهلنا معظمها من أيديهم». ولم يقف «هيردير» عند هذه «المفاجأة»، بل أكمل قائلاً: «لقد هبت على أوروبا رياح التذوق . . تذوق الجمال، المغامرات، الدين، الشرف . . لقد تسربت الآثار من الجنوب إلى الشمال بمنتهى الخفة والرشاقة؛ لتزرع نفسها فى تربتنا . . جنبًا إلى جنب مع الدين المسيحى . . جنبًا إلى جنب مع تذوق أهل الشمال . . ذلك التذوق الذى

يتميز بكل ما هو كبير وضخم؛ فيغلب عليه الشكل المُجسم المهول، مثل «الملك أريوس ومائدته المستديرة» و«كارل الكبير»؛ هذا غير القصص الفرنسية مهولة الحجم والمحتوى، التى تتحدث عن الفرسان والجان. **وهذا راجع بالأساس إلى عقلية الشعوب الأوروبية التى تشكلها مواصفات «الحجم» و«المساحة» أكثر من أى شىء آخر...ومن ثم، كان على هذه العقلية «الثقيلة» أن تستقبل تلك النسمات العربية الخفيفة، وأن تتعامل مع ذلك الشذا العربى الرقيق...مع الاحتفاظ فى نفس الوقت بالغطاء الثلجى».**

إضافة إلى هذه الآثار العامة التى خلفها الأدب العربى، ذكر «هيردير» أمثلة مفصلة، بدت لنا فى ثنايا صفحات التاريخ العائد إلى القرون الوسطى: «لقد حفلت العصور الوسطى بالأحداث العربية، ثم امتزجت تلك العصور مع الأساطير القادمة من الجنوب، الأمر الذى أعطى زخمًا وانتعاشًا لروح الفكر والخيال عند الشمال تجاه الجنوب. فصار الأخير مصدر إثارة وتشوق مما حرك الوجدان الأوروبى تجاه المنطقة. ومن ثم تقبله للحروب الصليبية». إن الحروب الصليبية، كما يكمل «هيردير»، «شكلت أثرًا مهولاً على عادات الأوروبيين وأقوالهم؛ فقد بات هناك قصص وروايات «خارقة» لا حصر لها؛ صار هناك فارق واضح بين العالم الملموس وبين عالم الجان. لقد امتزجت روح الفارس الأوروبى بروح الشرق... وانتشرت روايات المغامرة والخوارق التى أوصلت أوروبا إلى حد الذهول».

باختصار، لقد تناول «هيردير» القرون العشرة الأولى التى تلت ظهور الإسلام، حيث سجل فيها الامتزاجات اللانهائية بين الملكة الفكرية العربية ونظيرتها الأوروبية. ومثل «هيردير»، جاء «ألكسندر فون هومبولدت» - وهو أديب أوروبى كبير (١٧٦٩-١٨٥٩م) - ليسجل هو أيضًا ملاحظته التى تقول إن أمل «جوته»، فى امتزاج الشرق مع الغرب، لم يكن له وجود حقيقى فى ذلك الوقت، أى لم يكن مثارًا ... إلا أنه بالتأكيد لم يكن مستبعدًا بالقدر الذى نشهده اليوم. لقد بنى «هومبولدت» رؤيته على وجهات نظر «هيردير» و«جوته»، ليخرج إلينا بعمله الرائع فى عام ١٨٤٧م، الذى سماه «الكون» أو Kosmos. فى هذا العمل، أوضح «هومبولدت» كيف أدلى العرب - بجهد غير عادى - فى التطور الثقافى عمومًا، وفى القفزة الثقافية للقصص والروايات الأوروبية خصوصًا؛ معلنًا أن الشرق الأوسط مصدر أساسى ومنبع أصيل، لا غنى عنه، للثقافة الأوروبية. والحق يقال، إنه حتى هذه اللحظة، لم يُكتب لهذا العمل أن يرى النور إلا بالألمانية. أما دون ذلك، فلم يحدث أن صدرت عنه أى ترجمة، ولو حتى بالعربية. ومن ثم، فإن الأمر يستحق - بالتأكيد - طى هذا النسيان أو هذا الإهمال الذى تراكم على هذا العمل قرابة قرنين من الزمان. وإن معرفة النص الذى كتبه «هومبولدت» ونشره - بالإضافة إلى ما كتبه «ليسينج» و«هيردير» و«جوته» - يمكن أن تساهم فى صد تلك التحيزات الجائرة التى تولدت منذ القرن السابع عشر ضد الشرق، والتى ما زالت جماهير القرّاء

تتجرعها حتى هذه اللحظة. ففى القرن السابع عشر، كانت أشعار «الباروك» حافلة بإلباس الشرق لباس القهر والعنف والظلم والغلظة والثراء اللانهائى والبهرجة المستفزة؛ لتعطى فى النهاية صورة مزيفة وغير حقيقية عن الشرق؛ فيتكون لدى القارئ الأوروبى تشوق جارف نحو ذلك الشرق الغريب المزيف؛ وفى نفس الوقت تحيز وتحامل ضده.

ومن الجدير بالذكر، أن ثقافة «القولبة» هذه - أى وضع شىء فى قالب واحد بطريقة متعسفة وظالمة - لم يقتصر مدها على القرن السابع عشر فقط، بل امتد أيضًا إلى وقتنا هذا، وإلى لحظتنا هذه، مخترقًا الأدبيات البسيطة بطرق متعددة؛ فيعضد من شأن التصورات الظالمة حول الشرق. ولعل «كارل ماى» يعد أحد هؤلاء الأدباء، الذين كتبوا عن العالم العربى انطلاقًا من وجهات نظرهم «الخاصة». لقد استطاع «ماى» - عبر جرعاته المتواصلة لقرّائه الشباب - أن يصل إلى جمهور عريض، قوامه ٤٣ مليونًا.

خلاصة الأمر، أن إلقاء نظرة عابرة على وصف المسلمين العرب من قِبل «كارل ماى» بصورة خاصة، ومن قبل الأدباء الألمان بصورة عامة، يعكس لنا مدى الظلم الذى تعرض له المسلمون العرب فى تلك الكتابات؛ حيث لم يكن العدل حليفًا لهم إلا نادرًا ...إلا فيما كُتب لأدباء أمثال «ليسينج» و«هيردير» و«جوته» و«روكيرت» و«هومبولدت»..وآخرين غيرهم معدودين، تميزوا جميعًا بالحرفية والتخصص مثلما تميزوا بالشرف والأمانة.

اكتشاف الشعر العربى:

ماذا كان يعلم الكتّاب والمؤلفون الألمان عن العرب . . . عن أدبياتهم؟ وماذا يعلمون الآن؟ فى بداية القرن الثامن عشر، وصل أول عمل أدبى عربى إلى القارة الأوروبية، إلا أنه وصل فى ثوب فرنسى: لقد كانت الرواية العربية المشهورة «ألف ليلة وليلة» باللغة الفرنسية، التى ترجمها المستشرق الفرنسى المعروف «أنطوان جالاند» (١٦٤٦ ـ ١٧١٥م). وهكذا اندفعت تلك الشرارة من فرنسا؛ لتبث آثارها فى شتى بقاع الأرض. وكان الانتشار الواسع، الذى لاقاه هذا العمل الأدبى، أمراً غير معهود فى ذلك الوقت، إذ لم يكن هناك ـ بجانب كتاب الإنجيل ـ كتب تُذكر، تبلغ ذلك الصيت الذى نالته تلك الرواية العربية. بلغة أخرى، **لقد ذاع صيت «ألف ليلة وليلة» فى وقت كان فيه كتاب الإنجيل هو الكتاب الوحيد المتربع على الساحة الفكرية، والمتداول وسط الجميع، باستثناء كتب نادرة وقليلة جداً، يُصعب ذكرها أو تذكرها.** لقد استطاع هذا العمل الخارق أن يكتسب أهمية مباشرة من خلال انتشاره الواسع فى معظم البلدان الثقافية فى أنحاء أوروبا، لدرجة أنه لم يمر على أحد من تلك البلدان إلا ويكون قد قرأها مرة واحدة على الأقل. على أن تكون هذه المرة حافلة بالسعادة والإثارة فى آن واحد. كما استطاع هذا العمل أن يكتسب أهمية غير مباشرة، حينما أتاح لكثير من الأدباء استخدامه كمادة ثرية للنهل منها؛ تلك المادة التى لا يذهب سحرها أبداً، مهما مرت عليها السنون والأعوام. باختصار، إنَّ السحر الذى عكسته رواية "ألف ليلة وليلة" ـ ذلك السحر غير العادى ـ كان من العظمة التى لا

يمكن نكرانها على أية حال؛ لدرجة أنه يصير من الجائز ومن المنطقى وضعها مع «ملاحم هوميرز» أو «دراما شكسپير» على قدم المساواة، بالرغم من اختلاف المحتوى اختلافًا تامًا .

كتّاب ألمان كثيرون . . . ومثلهم شعراء ومؤلفون . . دخلوا بحماسة شديدة فى خندق «ألف ليلة وليلة»، ذلك الخندق المحظور آنذاك . فكان هناك «جوته»، «ماكسيماليين كلينجير»، «يوهان هاينريش فوس»، «جون بول»، «أوجوست فون بلاتين»، «جورج كريستوف ليشتينبيرج»، «فريدريش روكيرت»، «يكارل ميرمان»، «فيلهيلم هاوف»، «إيه . تيه . آه . هوفمان»، «كريستوف مارتين فييلاند»، «هوجو فون هوفمان شتال»، «شتيفان چورچ»، «راينر ماريا ريلكه»، «چيورچ فريدريش يونجر»، «هيرمان هيسه»، «هيرمان بروخ» . . . هؤلاء جميعًا أظهروا تبنيًا واضحًا وملموسًا لرواية «ألف ليلة وليلة»؛ فنشأت تجارب أدبية كثيرة على أثر ذلك التبنى .

ولم يقتصر هذا الولع على الماضى . . بل امتد أيضًا إلى الحاضر، إلى يومنا هذا . وإن مثالاً واحدًا من قصائد الشعر الغنائى الألمانى الحديث يمكن أن يُرينا جميعًا عظمة ذلك التأثير الخرافى الذى مارسته تلك الأعجوبة الأدبية على شعراء ومؤلفى ألمانيا الحالية . فها هى أشعار «أنا ماريا شيميل» تبث لنا ذلك الولع، قائلة :

لقد جعلتنى أحلم

فى ألف ليلة وليلة :

مدينة التوابل والذهب

الآن استيقظتَ وأفقت

فذهبت الألوان وبهتت

إلا أنه ما زال هناك البخور

يعيش ويقطن فى الطرقات

نحن لن نستطيع إحصاء الأسباب وراء تلك التأثيرات المهولة التى خلفتها «ألف ليلة وليلة»؛ فهى كثيرة وعديدة، لا نهاية لها: ولعل الطابع الديموقراطى لهذه الرواية هو الذى أدى بالفعل إلى ذلك الاستقبال الحميم لتلك النوعية من القصص من قبل الأدب الكلاسيكى الألمانى! فقد أشار «كريستوف مارتين فيلاند» (١٧٣٣-١٨١٣م) إلى ذلك، موضحًا أن «ألف ليلة وليلة» خاطبت جميع الدوائر: «جميع الأعمار، جميع الأجناس، جميع المستويات، الشباب والعجائز، المتعلمين والأميين، الأغنياء والفقراء، العاملين والعاطلين... كل هؤلاء يجتمعون حول الراوى؛ ليستمعوا إليه بشغف ونهم، وهو يسرد لهم العجائب والمعجزات». وتناغمًا مع هذا الرأى، نجد «جوته» واقفًا.. واصفًا إياها باقتضاب، قائلاً: «المتعلم وغير المتعلم يهيم شوقًا بها».

الخيال، السحر، الجان... كلها أدوات تلعب دورًا مركزيًا وأساسيًا فى الرواية؛ ولكن هذا ليس معناه طغيان الغموض والتعقيد والغلظة، بل

العكس هو الصحيح : فكل ما هو غير ممكن يُعرض بمنتهى البساطة، بمنتهى الوضوح، بمنتهى الرشاقة. ومن ثم، فلا مكان للألوان السوداوية، ولا مكان للضبابية أو السرمدية التى اعتاد أهل الشمال على استخدامها.

فى القرنين الثامن والتاسع عشر، لعبت «الإنسانية» فى «ألف ليلة وليلة» دوراً عظيمًا ومؤثراً ؛ فإذا تصفحتها، وجدت نفسك تتحرك فى وسط مجتمع حضارى من الدرجة الأولى، مما يدل على ثقافة راقية قويمة، استمرت عصوراً مديدة لكى تفرز لنا فى النهاية ذلك المجتمع الحضارى الرفيع. فى «ألف ليلة وليلة» نجد الحوارات تُدار بين مختلف المخلوقات : تارة الإنسان مع الإنسان، وتارة الشبح مع الشبح، وتارة الجان مع الإنسان، وتارة الجان مع الشبح. . كلها حوارات تدور فى أفلاك متعددة ومختلفة : مرة فى فلك الضعف والرقة، ومرة أخرى فى فلك الحذر والحيطة.

لا شك أن هذا العمل كان ذا ملمس حضارى متميز، تجلى بوضوح فى جميع أبطال وشخصيات الرواية، التى انتمت جميعها إلى ثقافة عالية وسامية. فنجد مثلاً حامل الأمتعة يدير حواراً ثريًا للغاية مع سيدة من المجتمع الراقى، بغض النظر عن الفارق بينهما؛ **الأمر الذى يدلل مرة أخرى على الثقافة الرفيعة المتميزة التى اتصفت بها القرون العربية الوسطى؛ تلك الثقافة التى أعلت من شأن المُعلم العالم، فجعلته فى**

أعلى مكانة يمكن أن يصل إليـها بشر؛ بل جعلتـه من خير وأفضل نوعـية البشر. ولذا كانت المعرفة من أهم الاعتبارات التى شحذت انتباه العرب؛ وأكبر دليل على ذلك، ما كانت تسرده وتصوره قصص الحب العربية، حينما كانت تصف البطل الجسور - سواء كان أميرًا أو ابنًا لتاجر - بكونه متعلمًا ومثقفًا من الدرجة الأولى؛ فتصير أهم مميزاته: إلمامه بلغات عدة، وحبه الشديد للشعر، وتمكنه منه.

وقد انسحبت هذه الثقافة - بوجه خاص - على شخصية المرأة فى «ألف ليلة وليلة». ومن ثم، فلم يكن عجيبًا أبدًا، أن تصدر أكثر الكلمات اتزانًا ونضجًا من النساء. إن الرواية أظهرت ذكاء وفطنة ولباقة الراوية، التى اعتمدت كثيرًا على ضلاعتها ونجابتها فى إدارة الحديث، وفى اختيار الكلمات. وليس أدل عن ذلك من كياستها التى أبدتها فى أثناء حديثها مع السلطان الفظ، ومخاطبتها له من خلال «العلاج الحوارى»، **مما يضرب بالنظرة السائدة والمهينة عن المرأة العربية، التى لا تخلو من الازدراء ومن الاستهانة بقدراتها، عرض الحائط.**

يبقى أن «ألف ليلة وليلة» لم تتواجد فقط فى ظل عالم من المثاليات الحالمة المرتفعة عن الواقع وأحداثه، ولم تتواجد فقط فى عالم من السحر و«الفانتازيا» لتطفئ ظمأ المستمعين وتعطش القرّاء؛ بل إنها تواجدت أيضًا فى ظل عالم محدد تاريخيًا ومعروف جغرافيًا؛ فى ظل عالم مغلق على نفسه من قبل مناخ ثقافى معين. مناخ تلعب فيه قوى الروح

دوراً محوريًا ، فيتحد العقل والروح سويًا ليقوما بتجديد الأخلاق والقيم معًا ؛ إذ أن الراوى العربى كان فى نفس الوقت مربيًا ؛ ليشكل فى النهاية عالمًا يسوده نظام أخلاقى قويم ؛ وهو العالم الذى تريده الراوية «شهرزاد» .

إن ولع الشعراء الألمان بـ«ألف ليلة وليلة» كان معروفًا ومتعارفًا عليه ، وقد أجادوا التعبير عن ذلك بأنفسهم ، إلا أنهم لم يصلوا بتعبيرهم إلى الدرجة التى وصل إليها «هوجو فون هوفمان شتال» (١٨٧٤ ـ ١٩٢٩م) الذى كتب قائلاً في عام ١٩٠٦م : «عندما كانت قلوبنا سابحة فى مرحلة الشباب ، وذواتنا سابحة فى وحدتها وعزلتها ، إذا بنا نجد أنفسنا فى مدينة كبيرة . . تغطيها الأسرار والأخطار والإثارة فى آن واحد . . » . وفى مرحلة متأخرة من حياته ، كتب «هوفمان شتال» عن «ألف ليلة وليلة» قائلاً : «هذا الشعر بين أيدينا يمثل عالمًا بأكمله . . ويا له من عالم حافل بشتى الألوان والصور ، بالعمق فى الفكر ، بالقفزات الخيالية ، بالوثبات غير الواقعية ؛ وفى نفس الوقت بأصناف شتى من الحكمة والبصيرة . هنا تجد ما لا يعد من القصص المسلية ، وما لا يحصى من أقوال الحكماء ، وما لا يتخيل من المعجزات والخوارق الطريفة والأحلام . هنا تجد كرم الضيافة على أصوله ، وتوازن العقل على أكمله ؛ ليجتمعا فى النهاية فى شخص واحد . . كان من الطبيعى ـ فى وسط هذا العالم العجيب ـ أن تثار حواسنا ، وأن يشحذ اهتمامنا من مفرق رءوسنا إلى أخمص قدمينا ؛ **الحقيقة أننا نعيش هنا كل شىء، فنشعر ونحس به،**

مما يجلب إلينا المتعة...إننا نتحرك هنا من أعلى العالم إلى أدناه؛ من الخلفاء إلى البرابرة، من الصياد الفقير إلى التاجر الأمير...إنها الإنسانية بمختلف صورها؛ تحفنا، فتحملنا بأمواجها فى خفة ورشاقة».

وكذلك تطرق «هوفمان شتال» إلى سمة التدين الملحوظة جدًا فى «ألف ليلة وليلة»، فقال: «إن وجود الإله كان مسيطرًا على جميع هذه الأمور والأشياء؛ فكل شيء - سواء كان إنسانيًا، حيوانيًا، أو حتى شيطانيًا - يتحرك فى ظل القداسة الموجودة فى السماء. فكما يتحرك الهواء، كانت تتحرك المشاعر الربانية، وكان يتحرك الوفاء والكرم من أول الرواية حتى نهايتها».

أما عن استخدام اللغة فى «ألف ليلة وليلة»، فقد لاحظ «هوفمان شتال» الآتى: «هذه اللغة تحتوى على كلمات متحركة، وكذلك على كلمات صلبة وواقفة. إلا أنها - فى النهاية - كلمات نابعة من القِدم. استخدمت فى عرض حياة مترفة باهرة، ولكن - فى نفس الوقت - فى عرض ممارسة بدوية بسيطة. **ونحن طبعًا أبعد ما نكون عن ذلك العالم الطبيعى؛ فبغداد والبصرة ليستا مسكنًا مناسبًا لبطاركتنا الذين لا يستطيعون العيش فى خيامها».** وبناء على تلك الاستحقاقات والمؤهلات الشعرية الرفيعة، فإنه ليس غريبًا على الإطلاق أن نجد «جوته» - بدءًا من بلوغه سن الشباب - يشعر بحميمية شديدة تجاه بغداد «ألف ليلة وليلة»، وكأنها بيته الذى يسكن إليه؛

وكذلك ليس غريبًا على الإطلاق أن نجد شخصية «شهرزاد» مصدر إلهام لـ «جوته»، لدرجة قيامه باقتباس العديد من أحاديثها، وتبنيها فى الكثير من أعماله.

ولم يقتصر اهتمام «جوته» على أهداف ومسار القصص الفردية فى«ألف ليلة وليلة»، إنما امتد اهتمامه أيضًا إلى أمور أكثر عمومية ولكنها ذات خصوصية بالغة؛ مثل الطريقة المسترسلة التى كانت تقص بها «شهرزاد» حكاياتها؛ وقد نجد هذه الطريقة متجلية فى أعماله، مثل «محادثة بين المهاجرين الألمان». لم يتأثر «جوته» بدور «شهرزاد» كمؤلف فقط، وإنما تأثر به أيضًا كمخرج، مثلما حدث فى إخراجه للجزء الثانى من تراچيديا «فاوست» أو «القبضة»: وبالتحديد منذ لحظة إعمال السحر حول الكنز إلى لحظة المواجهة بين «فاوست» و«هيلينا». وكذلك استخدم «جوته» النموذج القصصى والأسلوب السردى لـ«ألف ليلة وليلة» فى كتابة «ليلة فالبورجيز[1]»؛ ويجوز القول إنه لولا اقتباسه لهذا النموذج، لما استطاع أن يكتب «ليلة فالبورجيز». وأخيرًا، فإنه ليس من العجيب أن تصير «شهرزاد» مصدر ثناء القيصر الألمانى الذى وصفها بـ «الرئيسة».

إن «ألف ليلة وليلة» كانت بالنسبة إلى «جوته» كتابًا للحياة، يقرأه على امتداد العمر مهما طال؛ مثله مثل كتاب الإنجيل، وكتب «هومير»،

---

(١) فالبورجيز هى راهبة إنجليزية ولدت فى القرن الثامن عشر؛ كان لها جهود تبشيرية فى ألمانيا، ويقال: إنها كانت تمنع السحر الأسود.

و«شكسپير»، و«موليير»... تلك الكتب القيمة والنادرة التى تنتمى إلى الأدب العالمى. ومن ثم، كان «جوته» دائم العودة إليها، منشغلاً بها فى جميع فترات حياته، حتى وافته المنية.

لقد ظهر عمالقة الحضارة والثقافة العربية فى كتابات «جوته» و«هيردير»؛ ظهروا وتألقوا حينذاك بصورة لم يكن لأحد أن يتخيلها اليوم. فإذا قرأت رسائل وخطابات كلّ منهما، ستدرك إلى أى مدى وصل اشتياق الكثير من الناس - الذين كانوا يعيشون حولهما - إلى تعلم اللغة العربية فى المدينة الجامعية الألمانية «ينا»؛ وإلى أى مدى كان اهتمامهم بالرحلات التى كان أقرانهم يقومون بها فى البلدان العربية.

حينما أعلن «جوته» فى «ديوان الغرب والشرق» أن «بغداد ليست بعيدة للمحبين»، كان ساعتها قد امتلأ ثقة وشغفًا بهذه المدينة الثقافية المتميزة، التى اعتمد تميزها فى الأصل - كما يخبرنا «جوته» فى «ديوان الغرب والشرق» - على تاريخها، خاصة فى أكثر الحقب إشعاعًا وتوهجًا عندما كان للبرامكة[1] دور مؤثر فيها، من الحفاظ على تألق الفن الشعرى، إلى الحفاظ على فن الكلام والحديث، إلى إثبات ذكائهم العالمى، وشخصيتهم البارزة فى المحيط السياسى. وللعرب قول مأثور اسمه «الجمال أيام البرامكة»، وهو ما وصفه «جوته» فى مقولة له - لافتة

(١) البرامكة مفردها برمكى أو حريف، وهى لفظة لها مدلولات حميدة مثل الكرم والتعاون وحب النظام والنظافة، وقد حكموا بغداد لفترة، وهم تراث طويل من التقاليد.

للانتباه وفى نفس الوقت سرية - فقال: «إنه ذلك الوقت حيث كانت الكائنات الحية منتعشة. . ديناميكية... مستيقظة. . . متوهجة؛ فإذا مر علينا ذلك الوقت، نصير فى اشتياق شديد إلى عودته ثانية. فمهما مرت السنون والأعوام، نظل على أمل أن تنبثق تلك الفترة الذهبية مرة أخرى. . . ربما فى أماكن غير معروفة، ولكن تحت ظروف متشابهة».

فى «ديوان الغرب والشرق»، ركز «جوته» بطريقة غير مباشرة على بغداد؛ فوضعها - كمدينة عربية معروفة ذات مكانة علمية معروفة - على نفس الدرجة مع مدينة «فايمر» الألمانية. لقد كان يدرك جيداً بأن بغداد تزخر بمؤسسات علمية ثرية ومتميزة؛ وذكر ذلك فى أثناء استعراضه لحياة الشاعر الفارسى «سعدى» (١١٨٩ - ١٢٩١م) الذى انتقل من شيراز «لينهل الدراسة والعلم من بغداد». لقد بلغ شغف «جوته» ببغداد فى ذلك الحين، أنه لم يستطع منع نفسه من حسد ذلك الرجل البريطانى D.C.Rich - الذى كان مقيماً فى بغداد ومتمرساً فى علم اللغات - لتمكنه الفذ من فنون الخط العربى. ولم يتوقف شغفه عند هذا الحد، بل تحدث - بنفس هذا الحس المرهف - عن (١٥٨٦ - ١٦٥٢م) Pietro della Valle الذى انتقل أيضاً إلى بغداد؛ ليتعرف هناك على سيدة، آية فى جمال الشكل والروح، فيحبها حبًا شديداً، حتى قبلت فى النهاية الزواج منه، لتصير بعدها زوجة أحد النبلاء الرومانيين. إلا أن «جوته»، عندما كتب هذا البيت «بغداد ليست بعيدة للمحبين»، لم يحدث أنه ربطه بـ «ألف ليلة وليلة» أو بقصة Pietro della Valle، وإنما ربطه بأبيات للشاعر التركى «نيدشاتى»، التى تقول:

إذا صار بينك وبين من تحب أكثر مما بين الشرق والغرب

فاجر فقط أيها القلب، فإن بغداد ليست بعيدة عن المحبين

هذه الأبيات قام «جوته» بمحاكاتها فى أبيات الغزل التى كتبها إلى «سوليكة»، الموجودة فى «كتاب سوليكة لديوان الغرب والشرق»، فقال:

هل أنت مفصول عن محبوبك

كما هو الحال بين الشرق والغرب

هل يجرى قلبك فى كل الصحارى

هذا الموكب الذى نجده فى كل مكان

إن بغداد ليست بعيدة للمحبين

لقد أخفى «جوته» خلف «سوليكة» ـ وهو اسم عربى مستعار ـ المرأة التى أحبها صديقه «يوهان يعقوب فيليمير»، وهى المغنية الشاعرة المعروفة «ماريان فيليمير»؛ حيث قام «جوته» بنقلها ـ فى ظل خيالاته ـ إلى بلاد الرافدين (دجلة والفرات)، وهناك بدا له الأمر، وكأن «الهواء محمل بشذا الورود والرياحين».

وفى الحوارات الداخلية التى كانت تدور فى خلد «حاتم» ـ وهو الاسم المستعار لـ«جوته» فى «كتاب سوليكة لديوان الغرب والشرق» ـ

كانت بغداد قد تحولت إلى ذلك المكان الساحر الذى يتشوق المرء إلى زيارته بحرقة، بل تحولت إلى موقع تاريخى للشفاء من آلام الحب والأحزان. أما لماذا كانت بغداد بالذات هى مقر علاج أولئك المرضى، الذين اكتووا بآلام الحب وأحزانه؟ فإن الإجابة نجدها ببساطة فى تلك المقولة الغربية الشهيرة التى تقول: «أخذ الترياق من بغداد»، باعتبار أن بغداد كانت حينذاك تمتلك أفضل «ترياق» وأنجع دواء لمعالجة لدغات الحيات والثعابين. لقد حمل «جوته» ذلك فى وصيته؛ حملها فى رسالة تحتوى على عبارة مقتضبة تقول: «بمجرد أن تأتى بالترياق من بغداد، ينتقل المريض من حال إلى حال».

فى «فايمر» كانت لغة الاستمتاع الفنى قاصرة على القصص العربى، فكان هناك ولع شديد تجاه الأمثلة والمقولات العربية التى اهتم بها - على الأخص - «يوهان يعقوب رايسكه» (١٧١٦ - ١٧٧٤م)، حيث كان له باع كبير فى ترجمة الكثير منها إلى الألمانية. لقد ترجم المستشرقون الألمان حوالى ١٥ ألفًا من الأمثلة والمقولات العربية إلى الألمانية، إلا أن تأثيرها على الجماهير الأوروبية كان يعتبر ضئيلاً نسبيًا إذا ما قارناه بكتابات «جوته» و«هيردير»، كما ذكرنا سالفًا. أما «رايسكه»، فكان له الفضل فى جذب الألمان المتعلمين - فى الشطر الثانى من القرن الـ ١٨ - إلى الأدب العربى، حيث كانت معرفته الضليعة بالعربية ظاهرة ظهور الشمس، لدرجة أن الرحالة «كارستين نيبور» (١٧٣٣- ١٨١٥م)،

المعـروف بجـولاته ورحـلاته فى بلـدان العـرب، افـتـرض يومًـا بأنه فى مقـدور «رايسكه» فك رموز النصوص العـربيـة التى كـان العلمـاء العـرب أنفسـهم يعـجزون، سـاعـتهـا، عن فكهـا. **لقد كـانت ألمانيا ـ فى ذلك الوقت وفـيـمـا بعـد ـ حـريصـة كل الحـرص على اسـتـدعـاء أولئك المستشرقين، غير العاديـين، الذين يهبون أنفسهم ويكرسون أوقاتهم لنهل أكبـر قدر ممكن من الأدب العـربى...فلنعد فقط بذاكـرتنا إلى الوراء، إلى المستـشرق الفذ «فريدريش روكـيرت» (١٧٨٨ ـ ١٨٦٦م)، أو ننظر إلى تاريخـنا الحـديث، إلى المسـتـشرقة المبجلة القـديرة «أنـا مـارى شـيـميل» (١٩٢٢ ـ ٢٠٠٣م)؛ لكى نتبين مدى صدق هذا الكلام.**

ماذا نعلم نحن الآن ـ وماذا كنا نعلم كألمان ـ عن الشعراء العرب؟ من الشعـراء العـرب الذيـن كنا نعرفـهم، والذين نعرفـهم الآن؟ عندما ذهب «جوتـه» إلى الدراسة فى «لايبتسيج»، كـانـت ترجـمـة «رايسكه» لشـعـر «المتنبى» (٩١٥ ـ ٩٦٥م) قد ظهرت لتوها؛ لكى تخرج إلى النور؛ فيتأثر بهـا الشـاب «جوته» ـ ذو الستة عشر عـامًا ـ لدرجة أنه لم يتركـها بدون إدراج بعض نفحـاتها فى عمله المعروف «فاوست» أو «القبضة». وحينما أبدع «جوته» بعدها «ديوان الغرب والشرق»، شغل نفسه مجدداً بأشعار «المتنبى»، بحياته وتاريخه.

لقـد أجـمع «جـوته» و«هيـردير» على مـيل العـرب الخـاص إلى فنون الشعر؛ فـها هو «هيـردير» يعلنهـا صراحـة فى عام ١٧٧٨م، قـائلاً : «منذ القدم والعرب معروفون بكونهم شعراء؛ لغتـهم وعاداتهم نشأت بالشعر

وللشعر . . . عاشوا فى خيام بسبب تنقلهم الدائم من مكان إلى مكان . . . ولعوا بحب المغامرات إلا أن عاداتهم كانت تسير على وتيرة واحدة . . بدلاً من التيجان لبسوا العمائم ؛ وبدلاً من الأسوار سكنوا الخيام . . . وبدلاً من القوانين الوطنية كانت الأشعار . . . وبدلاً من الحصون احتموا بالسيوف» . بعدها مباشرة ، كتب «جوته» «ديوان الغرب والشرق» الذى حمل فكرة «هيردير» ، ولكن فى شكل أبيات من الشعر :

نعم أربع

أنعم اللهُ على الأعراب

بنعم أربع عِجاب

كيما يجوبوا الفلواتِ فَرحين

ويعيشوا فى رغدٍ هانئين

* * *

وهبهم العمامة التى تُزين

خيرًا من تيجان القياصرة أجمعين

وخيمةً إليها يأوون

فى أىّ مكان يشاءون

* * *

وسيفًا يحميهم ويصُون

أمنع من الصخور وأسوارِ الحصونِ

وقصيدًا يُطرب ويُفيد

تتصنت عليه الحسان الغيد

* * *

ومن اللافت للنظر، أن يتبنى «هيردير» وجهة النظر القائلة بأن أشعار العرب كانت أعظم أثرًا على سلوكهم وعاداتهم من تأثير القوانين؛ فها هو يقول: «إن أشعار العرب تمثل «نسخة» لطريقة تفكيرهم، ولطريقة معاشهم؛ **هم أناس يتنفسون العزة والحرية، متشبعون بروح المغامرة، وشرف المسئولية، والشجاعة التى كانت تنفجر إما فى صورة انتقام تجاه العدو، أو فى صورة وفاء ومروءة تجاه الصديق والحليف.** ترحالهم الدائم الممزوج بدافع الشجاعة والمروءة أخلف من ورائه أنين المحبات فى أشعارهم. . . لقد كانوا بحق شعراء قبل بعثة محمد بزمن طويل».

وفى «أفكار لفلسفة التاريخ الإنسانى» كتب «هيردير» فى عام ١٧٨٥م قائلاً: «بالنسبة للعرب كانت لغتهم تمثل أعظم جزء من تراثهم؛ فن الشعر كان يمثل عبقهم الإرثى القديم؛ كان يمثل ابنة. . للحرية. لقد

أينع وأثمر هذا الفن قبل قدوم محمد بزمن طويل ؛ إذ إن روح هذه الأمة كـان الأدب، وهناك آلاف الأشـيـاء التى سـاهمت فى إيقـاظ هذه الروح. تعـالوا نلقى نظرة على أرضـهم، على طريقـة حيـاتهم، على رحلات الحج التى كـانوا يقـومـون بهـا إلى مكة، على منافسـاتهم الشعرية، على عزة أنفسهم - التى كان يرثها الشاعر الابن من أجداده - على فخرهم بأمتهم وبلغتهم، على مقولاتهم، على ميلهم إلى المغامرات والحب والعظمة، على عزلتهم، على أخذهم بالثأر، على معيشتهم غير المستقرة. كل هذه الجوانب - التى ملأت حياتهم - كانت دافعًا لهم لكى يبدعوا فى الشعر؛ فيُخرجوا له أجود وأنفس ما لديهم من الإحساس والمشاعر. هذا بالإضافة إلى تأملاتهم الفطنة، ومقولاتهم الحكيمة التى تنم عن حدة الذهن وعمق الفكر».

وفى ظل هذه الحماسة المتوهجة، يكمل «هيردير» قائلاً : «إن العربى ينطق ناراً، مثلما ينطق سيفه برقًا، ومثلما ينطق عقله سهمًا». لقد هام «هيردير» بالشعر العربى، فوصلت ذروة إعجابه إلى تلك الكلمات العجيبة : «لا يوجد شعب يستطيع أن يفتخر بما كان لديه من دعامات عاطفية - أدت إلى ظهور الشعر والأدب والنثر - مثلما كان العرب فى أبهى صورهم».

فى ١٧٨٣م، ترجم «هيردير» و«جوته» معًا - بمساعدة كتابات لاتينية وإنجليزية مأخوذة من المقتطفات الأدبية المشهورة والمعروفة بالقصائد السبع - ما يُسمى بالمعلقات التى ظهرت قبل بزوغ الإسلام. هذه

القصائد المكتوبة بالإنجليزية ما زالت تعرف - حتى يومنا هذا - بنموذج الشعر الكلاسيكى العربى ذى الشكل الفنى الراقى الرفيع. وهنا لا يفوت على «جوته» أن يعظم من شأنها، فيصفها قائلاً: «كنوز طاغية الجمال.. ظهرت قبل الرسالة المحمدية، مما يعطى لنا الانطباع بأن القريشيين كانوا أصحاب ثقافة عالية؛ وهم القبيلة التى خرج منها النبى (محمد) نفسه». وقد وصف «هيردير» قبيلة قريش قائلاً: «شعرهم كان يدل على حبهم للحرب؛ تأصلت فيهم النزاعات حول التعدد الهائل للأنساب والجذور، أشد ما يكونون فى التمسك بالشرف، والنسب، والحماسة، والشهامة».

ولم يكن «جوته» وحده شغوفًا بالمعلقات، بل كان «هايينريش هاينه» (١٧٩٩-١٨٥٦م) خلفًا له فى هذا المضمار. ولم تكن المعلقات وحدها هى التى شغفت قلب «جوته»، بل شغفته أيضًا مجموعة الملاحم الغنائية لـ «أبى تمام» (٨٤٥)، التى حملت عنوان «حماسة». وقد أعجب على وجه الخصوص بملحمة الشاعر «تأبط شرًا بن جبير الفهمى»، حيث أغنيته المشهورة عن ثأر الدماء التى ترجمها «جوته» إلى الألمانية، معطيًا القرّاء الألمان فكرة حول الشعر العربى. أما عن مدى تأثير هذه الملحمة على «جوته» نفسه، فقد شرحه لنا مستشرق شاب بروتستانتى (متخصص فى دراسة العلوم الدينية)، وهو «يوهان جوستاف شتيكل» (١٨٠٥-١٨٩٦م)، كشاهد عيان. فقد أخبرنا «شتيكل» عن زيارته لـ«جوته» - وهو فى عامه الواحد والثمانين، وقبيل وفاته بعام - فقال:

لقد كان «جوته» يحكى لى عن انشغاله المبدئى باللغة العربية فى أثناء شبابه. وعندما عبرت له عن مدى إعجابى بترجمته النموذجية الفريدة للملحمة الشعرية العربية فى «الديوان»، فإذا به يُحرك رأسه تجاهى - بالرغم من جلوسه - وكأن جسده قد كبر فجأة . . . فى عزة وكرامة ملحوظتين، محاضراً الأبيات الآتية:

تحت الصخرة على الطريق

يرقد مقتولاً

لا تبل دمه

قطرات الندى

وعند الظهيرة بدأنا، نحن الفتيان الهجوم

ثم واصلنا السير بالسرى

كما لو كنا سحابًا لا يستكين

كل واحد كان سيفًا

متشحًا بسيف

إذا ما سُلَّ

فهو برق سنى

كانوا يحتسون أنفاس النوم

ولكن ما أن هوَّموا

حتى رحنا نقاتلهم

فكانوا هباء منثورًا

كان «جوته» يتلو هذه الأبيات بصوت منضبط - وهو الرجل المسن ذو الذاكرة الفذة العميقة الحادة - كما لو أنه قد مُس مسّاً شعريّا . . . فإذا به يطل بعينين متسعتين، وكأنهما يشعان برقًا ورذاذًا . إن ما أخبرنا به صديقه الشاب «شتيكل» أبرز بقوة العلاقة الحميمية التى كانت تربط «جوته» بالشعر العربى، والتى اعتمدت أساسًا على افتتان «جوته» باللغة العربية، حيث وصفها فى عام ١٨١٥م قائلاً : «ربما لم يحدث فى أى لغة - هذا القدر العالى من الانسجام بين الروح والكلمة والخط - مثلما حدث فى اللغة العربية؛ إنه تناسق غريب فى ظل جسد واحد» .

❋ ❋ ❋

«جوته» ودراسته للقرآن

لقد كان الإعجاب الشديد بالقرآن سببًا أساسيّا لافتتان «جوته»، وكثيرين ممن واكبهم من الكتّاب والمؤلفين، باللغة العربية. فها هو «هيردير» يتحدث عن تلك اللغة القرآنية المقدسة، واصفًا إياها «بأعجوبة العجائب فى فن الشعر»، التى نافس بها النبى «محمد» «كل الشعراء»، مضيفًا أن الإسلام يمثل «ديانة أدبية».

يعتقد كل مسلم بأن القرآن «منزل من الله عبر الملاك جبريل إلى النبى محمد، وأن محمداً ليس بشاعر، وأنه أمى. وقد كان خلاصه أو نقاؤه من جميع أصناف العلوم والفلسفات والنظريات المختلفة، كان داعمًا ومشجعًا لكى يثق البشر فى كلامه، وفى دعوته.. فيبقى مصدراً لذلك النقاء الكامل، ومن ثم مكملاً رسالته إلى النهاية. وهنا يتذكر الشاعر السورى ـ اللبنانى «أدونيس»، ويذكرنا معه، بأن القرآن ـ فى صورته الشفهية ـ كان يمثل «مفاجأة لغوية» للعرب جميعًا. لقد أخذ الجمال اللغوى فى القرآن بلب العرب، بقلوبهم وعقولهم؛ «لقد كانت هذه اللغة المفتاح الذى فتح الباب للدين الجديد: الإسلام». «إن الموسيقى الشعرية التى كان يعرفها العرب قبل الإسلام ـ كانت بالتأكيد ـ أقل ثراء من موسيقى السُور القرآنية». وبما أن لغة القرأن هى فى الأصل مخلوقة

من عند الله، فقد اعتمد هذا الكتاب المقدس على الشرح الإلهى والتفسيرات الربانية. ففى القرآن تجد روعة الدلائل على وجود الله، وعلى عظمته، وعلى امتلاكه لهذا الكون الفسيح؛ باختصار، لم ولن يكون فى مقدور أحد من البشر الوصول إلى تلك التحفة المعجزة الربانية».

اكتشف «جوته» روعة القرآن اللغوية فى بداية عقده الثالث، وهو ابن الاثنين والعشرين. وكان «هيردير» - عالم الدين الپروتستانتى - هو الذى دفعه إلى دراسة القرآن فى مدينة «شتراسبورج» الألمانية فى عام ١٧٧٠م، وهو الذى قربه من هذا المجال. وكان مفهوم «التسامح» هو **المسيطر على عقل «جوته» فى ذلك الحين، لدرجة أنه ذكر ذلك فى مفكرته «الشعر والحقيقة» قائلاً: «التسامح هو الحل فى ذلك الوقت».** وعبر هذا المفهوم، ومن خلاله، تعلم «جوته» كيفية إدراك القرآن وفهم معانيه. ولا عجب فى ذلك، فقد كان تعامل «جوته» مع القرآن متماشيًا مع روح العصر الذى كان يعيش فيه، تلك الروح التى كانت تميل إلى معرفة كل ما كُتب غير الإنجيل؛ ومن ثم، كان كل جديد يحظى باحترام الشعوب الأخرى، فيقدسونه كما يقدسون كتبهم؛ ويدينون له بالاحترام غير المتحيز، كما كانوا يدينون لكتبهم.

وعودة من «شتراسبورج» إلى مسقط رأسه، بذل «جوته» جهدًا فى الإلمام باللغة العربية وبالخط العربى؛ وباطلاعه على ترجمات القرآن المختلفة، استطاع أن يصل إلى أول ترجمة ألمانية للقرآن، التى كتبها

الأستاذ الفرانكفورتى «ديفيد فريدريش ميجيرلين». وتأثرًا بهذه الترجمة، بادر «جوته» إلى كتابة ملخص مقتضب عنها - الذى ظهر فى «الأوراق العلمية الفرانكفورتية» - إلا أنه تم إزالته بعد ذلك؛ بسبب تفوق عرض جوته للقرآن على ترجمة «ميجيرلين» التى كانت تلبس ثيابًا مسيحيًا، حاملة مضامين ومعانى مضادة للإسلام. وبسبب حذف ما كتبه «جوته»، قام الأخير - متحديًا - بوصف ترجمة «ميجيرلين» بالإنتاج «الردىء»، الأمر الذى دفعه بعدها إلى النداء بظهور ترجمة ألمانية أخرى، يكون صاحبها إنسانًا ألمانيًا «يكون قد قرأ القرآن بحس الشاعر والنبى، ويكون لديه من الروح التى تستطيع الإلمام بالقرآن كله، ومن ثم إدراكه من جميع أطرافه». وكان الشاعر والمستشرق «فريدريش روكيرت» هو أول من حاول تلبية نداء «جوته»، إلا أنه لم يفلح فى ترجمته بأكمله.

فى عام ١٨١٩م، وصف «جوته» أسلوب القرآن «بالقسوة والعظمة والرهبة والسكون». كان يسعى دائمًا - فى مرحلة الشباب - إلى فهم القرآن وإدراكه، وهو الأمر الذى لم يظهر فقط فى الملخص الذى كتبه حول ترجمة «ميجيرلين»، بل ظهر أيضًا فى الدراما التى كتبها حول النبى محمد ﷺ، والتى ستدور حولها مناقشتنا فيما بعد. **وبعد أربعين عامًا، طلت علينا حوارات «ديوان الغرب والشرق»، التى عكست اتساع مداركه عن الإسلام، والتى توجها بجهود كبيرة، بذلها من أجل الوصول إلى حوار منطقى عقلانى بين العالم الغربى وبين الإسلام - الذى يعد من**

أهم الديانات العالميـة ـ فى كل زمان ومكان، معتـمدًا فى الأساس على لغة الاحترام المتبادل.

إن هذا الاحترام يمثل عنصرًا حقيقيًا لعلاقته بالعالم الإسلامى؛ وفيما يلى بعض الأمثلة التى تدلل على ذلك: عندما كان «جوته» فى عامه الاثنين والعشرين، فى بداية حياته الأدبية، كتب رسالة إلى «هيردير» قائلاً له: «أريد أن أدعو مثلما دعا موسى ربه فى القرآن ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥] لقد استشهد «جوته» هنا بالسورة رقم ٢٠ من القرآن (سورة طه). أما عن دلالة ما كتبه «جوته»، فيمكن فهمه من خلال استكمال قراءة السورة، ومدى تأثره بها فى ذلك الوقت؛ إن الآيات تقول: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٧]. إن استشهاد «جوته» بآيات القرآن تلقى ضوءًا على التقدير الخاص الذى كان يحمله «جوته» فى قلبه تجاه هذا الكتاب المقدس. وبعد خمسين عامًا، أعلن «جوته» ذو السبعين عامًا عن تفكيره فى «الاحتفال بتلك الليلة المقدسة التى نزل فيها القرآن من أعلى السماء إلى النبى محمد ﷺ. وإذا تأملنا فى الكلمات التى اختارها «جوته» هنا ـ «الليلة المقدسة»، «من أعلى السماء» ـ سنجد أنها نفس الكلمات التى تستخدمها المسيحية للاحتفال بميلاد المسيح فى ليلة الميلاد.

بدون أدنى شك، كان استخدام «جوته» لتلك الكلمات بعيدًا كل البعد عن اللغة السائدة التى كان يتحدث بها العالم الغربى، فى ذلك

الوقت، عن الإسـلام. فـعلى عكس النـبى مـحـمـد ﷺ وعـلى عكس المسلمـين، الذين كانوا يكنـون كل الاحتـرام والتقـدير للكتب السمـاوية الأخرى (التـوراة والإنجيل)، كان العـالم الغربى لا يُكن هذا الاحـترام أو التـقدير للقـرآن. لقـد رأى «جوته» ـ خـلافًا للعـالم الغـربى ـ التأثيـر الربانى الذى تركـه القـرآن على تاريخ البـشـرية، كـمـا رآه قـبل ذلك فى العهـدين: القديم والجـديد. ومن ثم، كان عكـوفه ـ منذ الصغـر ـ على دراسـة القرآن، مما أعطى مـثلاً صـريحًـا وواضحًـا عن كيـفيـة احتـرام المسيـحيـة للإسلام...إلا أنه، ومع الأسف الشـديد، لم يتبع خطـاه إلا نفر قليل. والنقطة الأخيرة التى نريد الإشارة إليها فى هذه الفقرة هى: أنه لولا دراستـه للقرآن وإدراكه الـشامل له، لما شعـر بهذا التبـجيل وبهـذه الرهبة تجاهه.

إن اقـتبـاسات «جـوته» من القرآن فى عـامى ١٧٧١ و١٧٧٢م تعكس بوضـوح تقديره الشـخصى للسـور والآيات، ذلك التقـدير الذى يعكس قناعته بأمـور وحقائق كثيـرة فى الإسلام، طالما كان يبحث عنهـا..وأخيرًا وجدها. تلـك الحقائق التى وجـدها أخيـرًا فى القرآن، فـشحـذت عقله، وأثارت لديه من التعاطف والتأييد، سواء على المستوى العقلى أو الحسى. فكانت السورة الثانية من القرآن (البقرة) من أكثر السور التى أثرت فى الشـاعـر الألمانى، ومن أحب السـور إلى قلبـه. فـهـا هو يسـجل الآية رقم١١٢، مسجلاً ذلك الفكر الرائع العميق الذى احتوته الآية: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْـهَـهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُـحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْـهِمْ وَلا هُمْ

يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]. ثم يُتبعها بآية أخرى، من نفس السورة، تعبر عن دليل الوجــــود الإلهى فى الكون كله، وهى الآية ١١٥: ﴿وَلِلَّهِ الْمَـشْـرِقُ وَالْمَـغْـرِبُ فَـأَيْنَمَـا تُـوَلُّوا فَـثَمَّ وَجْـهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]. وإذا بـ«جوته» يقفز بعدها إلى الآية ١٦٤، مركزًا على نفس الموضوع المختص بوجـود الله فى الكون: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

هذه الآيات - مثل نظائرها الكثيرة فى القرآن - تشهد على أن الله ليس كمثله شىء؛ فمن خلال متابعة الإنسان للنظام الكونى المتجلى فى جميع الظواهر الطبيعية، يتبين له، ويبدو برهانًا أمامه، طلاقة القدرة الإلهية فى هذا الكون، وديمومة القوانين الطبيعية التى ليست إلا قوانين إلهية، والتى وضعها الله لتسيير ملكه. إن القرآن يُعلمنا تأمل الطبيعة وتدبرها فى جميع أشكالها، فى ثرائها ونظامها، وكيف أن هذا التأمل يقودنا إلى الإيمان بوجود القدرة الإلهية؛ بوجود الإله الواحد الذى تتجلى قدرته فى كل شىء. **لكن «جوته» لم يتعرف على ذات الله «الواحدة»، التى ليس كمثلها شىء، من ترجمات القرآن المشهورة -**

سواء ترجمة «ميجيرلين» الألمانية أو ترجمة «ماراكيوس» اللاتينية - بل تعرف عليها من خلال متابعته وتأمله فى شخص النبى محمد ﷺ.

ومن ضمن ما سجله «جوته» أيضًا - من خلال قراءته للقرآن - الدعوة إلى عمل الخير التى تعتبر من أهم سمات القرآن. وقد انعكس اهتمامه بهذا الأمر بالذات فى «ديوان الغرب والشرق» الذى لم يخل من نداءاته المستمرة للمسارعة فى عمل الخير. وكذلك كان من ضمن ما سجله «جوته» من القرآن ما يتعلق بكون الله لم يتحدث إلى البشرية عبر رسول واحد، بل عبر رسل عديدين. ويسجل ذلك من السورة الثالثة من القرآن ناقلاً : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٤].

لقد دار جدل كبير بين الشاب «جوته» وبين «يوهان كاسبير لافاتير» (١٧٤١-١٨٠١م) - عالم الدين البروتستانتى السويسرى - حول مسألة المسيح : هل هو الرسول الوحيد الذى اختاره الله لتبليغ كلمته؟ أم أن هذه المهمة كُلف بها رسل آخرون؟ **كان «جوته» يحاول ساعتها إقناع «لافاتير» - من خلال الإشارة إلى النبى «محمد» - بأن التاريخ لا يقتصر فقط على الدين المسيحى، بل يمتد أيضًا إلى مدارس دينية وتعليمية أخرى، تستحق أن تحظى بنفس الاحترام، إلا أن «لافاتير» لم يبدُ أنه اقتنع، مما أدى إلى القطيعة بينهما فى نهاية المطاف.**

كذلك مثلت اقتباسات «جوته» من القرآن شغفه الخاص بالتأثير المحمدى على مجتمعه. فسجل ناقلاً من السورة الـ ٢٩ (العنكبوت) من القرآن: ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، ثم من السورة الـ ١٣ (الرعد): ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]. لقد تأثر «جوته» بهذا المعنى، الذى كان هو المحبب لديه طوال حياته، فها هو يكتب فى عام ١٨١٩م رسالة إلى أستاذ شاب، قائلاً: «إنه الحق ما يقوله الله فى القرآن: لم نبعث رسولاً إلى قوم، إلا أن يكون من بنى جلدتهم، ولغتهم، وثقافتهم». وكذلك كتابته إلى «توماس كارليل» فى عام ١٨٢٧م قائلاً: «القرآن يقول: إن الإله أعطى لكل قوم رسولاً يتحدث بلغتهم». وكذلك تأثر «جوته» بتلك الآيات التى تتحدث عن غير المؤمنين، الذين طالما طالبوا محمداً بإتيان المعجزات. وقد ظهر ذلك جليّا فى «ديوان الغرب والشرق» عندما كتب هذه الأبيات قائلاً:

المعجزات لا أستطيع إتيانها قال الرسول

المعجزة الأكبر هى وجودى بينكم رسولاً

❊ ❊ ❊

الرسول

أدت دراسة «جوته» للقرآن فى عامى ١٧٧١ و١٧٧٢ م ـ التى وصلت به إلى درجة الشغف والولع ـ إلى تفكيره فى «الدراما المحمدية» التى كانت حينذاك تقف فى تعارض مطلق لمسرحية « ڤولتير » (١٦٩٤ـ ١٧٧٨م) المسماة بـ«تطرف النبى محمد ﷺ » . ومن فرط بغضه لمسرحية «ڤولتير » ، منع الشاب «جوته» أخته «كورنيليا» من المشاركة فى إعادة عرض المسرحية التى كانت قد خرجت للنور فى عام ١٧٤٢م، تلك المسرحية التى وضعت أبشع صورة يمكن للمرء تصورها عن نبى .

وقد انقسمت «الدراما المحمدية» التى ألفها «جوته» فى شبابه إلى مشهدين : المشهد الأول صور بعثة النبى محمد ﷺ ، وكيف تم تكليفه بالرسالة ، والمشهد الثانى صور معاناته فى تبليغ رسالة التوحيد إلى البشر من حوله . فى ذلك الوقت ، قام «جوته» بتأليف «أغنية محمد» التى تعتبر أول تبجيل للنبى «محمد» من قبل شاعر أوروبى . من خلال هذه الأغنية الفريدة من نوعها ، نستطيع أن نلمس جيداً مدى تأثير الدين الإسلامى على «جوته» ؛ ولعل أكثر ما أثر فيه ـ كما هو ظاهر فى الأغنية ـ هو

انبهاره بشخص النبى نفسه، ثم انبهاره بكونه مؤسسًا للدين، لم يعتمد فى نشره على الكلمة فقط ـ كما فعل المسيح ـ وإنما اعتمد أيضًا على الكفاح الدنيوى الملموس. وقد قام كتاب «شعر وحقيقة» ـ المهتم بتناول حياة الشعراء ـ بالتحدث عن «جوته»؛ فأخبرنا أن اطلاعاته الثقافية والأدبية حول النبى «محمد» ـ الذى لم يستطع أن يراه أبدًا كإنسان كاذب أو مدلس ـ هى التى حفزته وحركت لديه الرغبة للتفكير فى تأليف «التراچيديا المحمدية» التى «جسدت كل ما يمكن أن يعجب به المرء فى شخص بعينه».

سعى «جوته» إلى الربط بين النبى المعلم الروحى وبين النبى الإنسان ذى الصفات الشخصية والذاتية. تناوله كظاهرة تستحق الوصف فى «أغنية محمد»، التى أفردت له مكانًا خاصًا ومتميزًا، والتى كتبها «جوته» فى إطار حوار متبادل بين «علىّ» و«فاطمة»، أو بين زوج ابنة الرسول وبين ابنته؛ كتبها «جوته» فى عام ١٧٧٣م، بعدما قبع على دراسة كافية للأدبيات المحمدية. **فى هذه الأغنية، عكس «جوته» المزج الذى حدث بين الشخصية التى تؤسس دينًا جديدًا وبين نفس الشخصية التى تربى البشر من حولها روحيًا وإيمانيًا. ذلك المزج الغريب الذى أدى إلى نشر هذا الدين الجديد، وتصاعده بقوة فائقة:**

انظروا إلى الصخر

كيف يلمع مثل النجمة،

عبر السحاب تقترب

أرواحه الجميلة الشابة

بين الأجراف والشجيرات

بانتعاشة الشباب

يرقص فى وسط السحاب

لينزل على الصخر الرخامى

ولكنه يحفل مرة

أخرى بالسماء

وبين مضايق الجبال

سار يتتبع الحصى الملون

وبخطى أقدام القائد

شد معه إخوانه

وأخذهم معه

تحت فى الوادى

تعيش الورود تحت خطى قدميه

والحدائق تعيش

وتتنفس بهوائه ونسماته

فى غير ظله

لا توجد الورود

التى تلتف حول ركبته

لتنظر إليه بعيون الحب

إلى الأرض المبسوطة

يجرى ويعدو

ها هو يجرى فى الوادى

متلألئًا بهيّا

والأنهار الجارية فى الوهاد

والجداول الهابطة من الجبال

تهتف به صائحة : يا أخانا

يا أخانا، خذ إخوتك معك

خذنا إلى أبيك الخالد

إلى المحيط الأزلى

الذى ينتظرنا

بذراعين مفتوحتين

أخانا.. أقدم خذ إخوانك معك

إلى أبيك الكبير

إلى المحيط الدائم

الذى ينتظرنا

وهو فاتح ذراعيه

وإلا ستنهشنا الصحارى الموحشة

وإلا ستمص الشمس دماءنا

وإلا ستمنعنا التلال

من البحيرة، يا أخانا

خذ إخوانك من السهول

خذ إخوانك من الجبال

خذهم معك إلى أبيك

تعالوا جميعًا !...

والآن يعلو ويكبر

حمل معه الأمراء

وفى وسط انتصاراته

أعطى للبلدان أسماء

ودانت المدن تحت قدميه

بدون توقف أكمل مسرعًا

تاركًا الأبراج وبيوت الرخام

تاركًا الترف والثراء

لا يعبأ بهما

بسرعة تتهافت

آلاف الأعلام حول جسده

يتلمسون جماله من عبق الهواء

هكذا حمل إخوانه

هكذا حمل أحبابه وأطفاله

كما نرى، صور «جوته» العبقرية الدينية محمداً ﷺ وهو يشد إخوانه البشر معه إلى الله، كما يشد النهر الكبير النهيرات الصغيرة معه إلى البحر. لقد أعطت هذه الأنشودة الشعرية مثلاً صريحًا عن الإجلال الذى ألحقه شاعر أوروبى - مثل «جوته» - بمؤسس الإسلام. لقد دلت الأبيات على ذلك التطبيع الذى نشأ بين الشاعر الألمانى وبين بطل شعره «محمد». لقد صوره «جوته» فى صورة الإنسان الذى يخاف على بنى جلدته من البشر، فيعاملهم كإخوة له؛ ومن ثم يشد على أيديهم، آخذًا بهم إلى الحياة العليا، إلى الحياة الأرقى. **لقد حملت الأغنية المحمدية قناعاته حول الانقياد للطبيعة والتصالح مع العالم؛ وهى قناعات تتعارض تمامًا مع نظرية التقشف المسيحى.**

لقد عكست «الدراما المحمدية»، وبقوة، شغف «جوته» الشديد لتبليغ رسالة التوحيد التى اقتبسها من أكثر من موضع من القرآن. وقد أقر بذلك فى كتاب «الشعر والحقيقة» قائلاً : «لقد بدأ المقطع بأغنية دينية تصور جلوس«محمد» فى ظل ليل السماء الدامس؛ يتأمل فى العدد غير النهائى للنجوم، التى يتزعمها النجم «جوبيتر» - ملك النجوم. . . بعدها بقليل يتحرك القمر. تتطلع إليه عيناه. . يتطلع إليه قلبه. . ثم تأتى الشمس لتوقظه، فتعطيه قوة ونشاطًا . وفى وسط كل

هذا ـ فى وسط تبدل الليل بالنهار ثم النهار بالليل ـ ينهض «محمد» إلى الإله الواحد الباقى الذى لا تحده حدود، حامداً له على ذلك الكون الرائع بكل ما فيه من إبداع وجمال . . . باختصار، لقد أُلِّفَتْ هذه الأنشودة الشعرية بكل الحب والامتنان . . . إلا أنها ضاعت فى النهاية. ولكن بالرغم من ضياع المخطوط الأصلى لتلك الأنشودة الدينية إلا أن ذاكرته لم تنسها أبداً . وها هى تخرج بعد موته إلى السطح، حيث يغنى البطل فى مطلعها، وهو يتأمل فى السماء، مبلغًا آية التوحيد عن ربه من القرآن قائلاً :

انظروا! ها هو يسطع فى السماء، المشترى النجم الصديق

كُنْ أنت سيدى، كُنْ إلهى! إنه يلوح لى فى حنان

انتظر. انتظر. أَتُحَوِّلُ عينيك؟

ماذا، أيمكنُ أن أحب مَنْ يتَخَفّى عنى؟

مباركٌ أنتَ أيها القمرُ. يا هادى النجوم،

كُنْ أنت سيدى، كن إلهى أنت تضىء الطريق

لا تتركنى، لا تتركنى فى الظلام

أيتها الشمس، أنت أيتها الشُّعلةَ المُتَوَّهجة التى يَتَبَتّل لها

الفؤادُ المشتعل.

كونى أنت إلهى. قودى خُطاى، يا من تطلعين على كل شىء.

أوَ تأفلين أنتِ أيضًا، أيتها الرائعة؟

إن الظلام العميقَ يُخيِّم عليَّ.

ارتفع أيها القلبُ العامرُ بالحبِّ لخالقك.

كُنْ أنتَ مولاى، كُنْ إلهى. أنت يا من تُحبُّ الخلقَ أجمعين

يا من خلقتنى وخلقت الشمسَ والقمر

والنجومَ والأرضَ والسماء.

لقد أظهرت الأبيات تعانق «جوته» مع الطبيعة فى ظل التصور الإسلامى. أظهرت قناعته بأن الإنسان يستطيع أن يتعرف على خالقه الواحد من خلال تجليات الطبيعة المتعددة التى لا حصر لها؛ تلك القناعة التى لمسها «جوته» من القرآن. **إن تأثير عقيدة التوحيد على «جوته» احتل أهمية كبرى لديه؛ لدرجة تعبيره عنها من خلال المشهد الحوارى بين «محمد» الصبى وبين «حليمة» أمه فى الرضاعة. فها هى تحدثه وهو خالٍ إلى نفسه فى إحدى الليالى، قائلة:**

حليمة: محمد!

محمد: حليمة! هل يجب أن تأتى الآن لتخرجينى من هذه الأحاسيس الروحية الجميلة. ماذا تريدين منى يا حليمة؟

حليمة: لا تقلقنى عليك يا ابنى الحبيب؛ فأنا أبحث عنك من قبل غروب الشمس. لا تعرض صباك إلى مخاطر الليل.

محمد: إن الله يحفظ الليل كما يحفظ النهار.

حليمة : تجلس وحدك على السطيحة . . فالليل لا يأمن من السارقين .

محمد : لم أكن وحدى . لقد تقرب منى الإله بحبه وحنانه .

حليمة : هل تراه؟

محمد : ألا ترينه؟ فى كل منبع ، تحت كل شجرة يتلقفنى بدفء حبه . كيف أشكره عما فعله معى . فقد شق صدرى ، وأخذ الطبقة الصلبة من قلبى بعيداً عنى ، حتى أعرفه .

حليمة : أنت تحلم . هل يمكن أن يُشق قلبك وأنت على قيد الحياة؟

محمد : أنا أريد اللجوء إلى ربى ، فأدعوه . . فيهديكِ للعلم والفهم .

حليمة : من هو إلهك؟ هُبل؟

محمد : يا لهم من أناس منتكسين ، يلجأون إلى الحجر الأصم . أنا أحبك يا ربى ، فابق معى ، واضممنى إليك! هل لدى الأصنام قلوب يفقهون بها؟ أم أذرع يعملون بها؟

حليمة : الذى يسكن الحجر لديه قوة كبيرة . .

محمد : إلى أى مدى يمكن أن تصل هذه القوة؟ بجانب هذا الحجر ، يقف ثلاثمائة آخرون .

حليمة : أين يوجد ربك؟

محمد : فى كل مكان .

كما نرى، يصور هنا «جوته» بعض مشاهد الطفولة التى عاشها النبى مع مرضعته «حليمة»؛ فيسرد لنا بعض القصص المأثورة مثل قصة «شق الصدر»، واضعًا حولها تخيلاته كشاعر وفنان. ولم تقتصر «الدراما المحمدية» على طفولته وروحانيته فقط، بل امتدت أيضًا إلى حياته الحربية والعسكرية وإلى حياته كقائد وكفاتح. وبخصوص هذا الشأن، يرى «جوته» بأنه «كلما امتدت الحياة الأرضية تراجعت الحياة الإلهية»[١] أما فى نهاية الدراما، فقد وضع «جوته» النبى فى أبهى وأنصع صوره، مبينًا مفارقته للعالم والحياة، بعد أن تمكنت رسالته من الوجود، وبعد أن تثبت «عرشه»، وبعد أن حظى بتقدير وإعجاب الخلق.



(١) المترجم يرى فى ذلك اعتقادًا خاطئًا. فالروحى والمادى عند النبى ﷺ كانا يتماشيان فى تواز مثالى. ففى غزوة بدر مثلاً، ظل يدعو فى عرشه، رافعًا يديه حتى ظهر بياض إبطيه.

تأثير فلسفة «سپينوزا»

لم يجد «جوته» فلسفة التوحيد فى الإسلام وحده، بل وجدها أيضًا فى نظرية «سپينوزا». لقد كان الشاعر الألمانى نصيراً وفيّا للفيلسوف «سپينوزا»، صاحب نظريتى «المشيئة الإلهية» و«التوحيد من خلال التأمل فى الطبيعة». هاتان النظريتان التقتا مع الإسلام فى نقطة تماس؛ فكما تحوز نظرية «المشيئة» على أهمية محورية فى الإسلام، فهى تحوز على نفس الأهمية فى فلسفة «سپينوزا». **لقد كان «جوته» مؤمنًا برسالة الإسلام الأساسية: «الإسلام بمعناه الحقيقى»، أى الخضوع لمشيئة الله؛ ومن ثم كان إدراكه لتلك المعانى ظاهراً فى أعماله على وجه الخصوص.**

وفى الأوقات العصيبة، كان «جوته» يتشبث ويتعلق بنظرية «المشيئة» الإلهية؛ مثلما حدث عندما مات صديقه - وكان من النبلاء - «كارل أوجوست»؛ حيث ذهب ساعتها إلى «يوهان بيتر إكيرمان» باكيًا وقائلاً: «الله فعل هذا، لأنه يراه خيراً؛ ولم يعد أمامنا ولا فى وسعنا سوى حمله». لقد كان «جوته» مؤمنًا بـ«تصور خاص»، خاصة فى حوادث الوفاة. فيقول فى عام ١٨٢٧م إلى القنصل «فريدريش فون موليـر»: «نحن نعيش طالما يريد الله ذلك». كما دَوَّنَ قائلاً: «الله لديه قوة تفوق

قوتنا، وحكمة تفوق حكمتنا؛ فهو يتصرف معنا بما يراه وما يريده هو». وكذلك تعبيره فى رسالته أثناء رحلته الإيطالية، فى ١١ أغسطس ١٧٨٧م، حيث قال: «لا أحد يستطيع أن يقف ضد قدره».

لقد تحدث «جوته» عن «الاستسلام للقدر» فى ضوء الإسلام؛ فنراه يكتب فى عام ١٧٩٢م قائلاً: «كلما اشتد الخطر، وكلما اشتد البلاء، يتبين لى أن من يعانون الابتلاء يشعرون بعدها بقوة فى الإيمان والاعتقاد». الديانة المحمدية تعطى أكبر دليل على ذلك. وفى عام ١٨٢٠م، عندما مرضت أخته غير الشقيقة مرضًا خطيراً، كتب إلى صديقه صاحب نفس الموقف من الإسلام قائلاً: «لا أستطيع أن أقول إلا أننى أجد نفسى - مرة أخرى - باحثًا عن الإسلام».

وبنفس الوتيرة، وبنفس اللهجة، كتب «جوته» فى عام ١٨٣١م، عندما انتشر وباء الكوليرا من حوله: «**هنا لا يستطيع أحد أن ينصح غيره فيما يفعله. فنحن نعيش جميعًا فى الإسلام الذى يعطينا الشجاعة فى مواجهة الحياة**». وقبل موته بأربعة أسابيع، كتب وهو فى عامه الاثنين والثمانين: «هنا فى هذا المكان، من أجل أن يتحرر البشر من دوامة الخوف المفزع، انتهوا بإلقاء أنفسهم فى حضن الإسلام، واثقين فى الله وفى أقداره النهائية غير المكشوفة لنا». **كما نلاحظ هنا، فإن الرسالة الإسلامية استطاعت التمكن من فكر «جوته»؛ فعاش حياته ساعيًا - بكل وعى وإصرار - وراء المحور الأساسى الذى تمركزت عليه رسالة**

الإسلام؛ وهو الاستسلام والخضوع لله. ولم يكتف بذلك، بل إنه قام أيضًا بتوجيه أصدقائه إلى هذا المحور الإسلامى، من خلال رسائله إليهم.

لاحظ «جوته» القرابة بين الإسلام وبين حركة الإصلاح البروتستانتى المسيحى؛ فحدث القنصل «فون مولير» فى عام ١٨١٩م قائلاً: «الخضوع والاستسلام هما الأساس الحقيقى لأى دين أفضل. بمعنى آخر، أن يدرك المرء معنى الخضوع للمشيئة العليا، ولمن هو أكثر عقلاً وأكثر فهمًا منا. إن الإسلام وحركة الإصلاح البروتستانتى هما الأكثر شبهًا من دون جميع الأديان». وفى المحادثات التى جمعها «إكيرمان»، نشهد مرة أخرى حبًا جارفًا ومتيمًا من قبل «جوته» تجاه الإسلام، حيث يركز هنا على معنى نظرية «القدر والمشيئة»، فقال: **«إنه لمن اللافت للانتباه، أن ننظر إلى المحمديين لنرى كيف كانوا يُربون وينشئون الأجيال المسلمة. كان الدرس الأول والأساسى هو تثبيت الشباب على عقيدة القضاء والقدر، وأن الإنسان لن يستطيع أن يواجه أمرًا إلا ويكون قد كتبه الله له من قبل؛ ومن ثم يصيرون بعد ذلك آمنين مطمئنين بقية حياتهم».**

ويكمل «جوته» قائلاً: «لا أريد هنا تقييم هذه التربية المحمدية، وهل هى صائبة أم خاطئة، مضرة أم نافعة؛ ولكنى بصدد توضيح كيف ترسخ وتغلغل ذلك الاعتقاد فينا جميعًا بدون أن نتعلمه أو ندرسه. فكما يقول الضابط فى وسط المعركة: «الطلقة التى لم يكتب عليها اسمى لن تصيبنى»؛ وإلا فكيف سيستطيع الإلقاء بنفسه فى مهالك المعركة؟ وكيف

له الاحتفاظ بشجاعته إذا لم يخضع لهذا الاعتقاد؟ ويعلمنا الاعتقاد المسيحى «أن العصفور لن يسقط من السقف بدون مشيئة أبيكم» ؛ وهو اعتقاد ينبع من نفس المنبع ، ويدلل على نفس التصور ، وهو : أن أتفه شيء فى هذا الوجود لن يحدث إلا بعد المشيئة العليا» .

لم يسلم «جوته» من الانتقادات والاتهامات ، لكونه يثنى على الإسلام بهذا الشكل الذى استفز أذنًا غربية كثيرة عند سماعها ، كما كتب فى «كتاب المقولات» :

من حماقة الإنسان فى دنياه

أن يتعصب كلّ منا لما يراه

وإذا كان الإسلام معناه أن لله التسليم

فعلى الإسلام نحيا ونموت نحن أجمعين

هذه المقولة لا تعنى إلا المعانى التالية : أولاً : أن كلمة «الإسلام» لا تعنى إلا «الخضوع والاستسلام» الكامل لمشيئة الله ، ثانيًا : أنه على الإنسان الاعتقاد فى كون الله وحده أعلى ذات فى الوجود ، ومن ثم فلا يجوز الخضوع إلا إليه ؛ بل لا يستطيع الإنسان إلا الخضوع إليه .

ولم ينس «جوته» ـ وهو يسجل قناعاته بنظريات «المشيئة» و«القدر» و«الاستسلام» ـ بأن يسجل أيضًا قناعاته بالحرية الإنسانية. وقد تجلى ذلك فى «ديوان الغرب والشرق»، الذى أظهر فيه كيف تتعانق «الحرية»

مع «المشيئة»؛ وهو التعانق الذى يعكس نظرته للوجود أو الـ -Weltans chauung.

وفى «كتاب المغنى» يطل علينا فارس أبى، تتفجر من وجهه العزة والكرامة، ممتطيًا جواده فى كل الأبعاد. ظهوره يبدو مفاجئًا، مما يجعلنا نتساءل: من يكون هذا الفارس؟ هل هو «المغنى» الذى اقتحم «المشرق الخالص النقى»؟ أم هو التاجر الذى ينتقل ببضاعته من الصحارى إلى المدن؟ من يكون هذا الفارس الذى يصيح فى مثل هذه الجرأة قائلاً:

دعونى فوق سرج جوادى

وابقوا فى أكواخكم وخيامكم

وسأنطلق سعيدًا فى كل الأرجاء

لا يعلو على قلنسوتى غير نجوم السماء

اكتشفنا بعد ذلك، أن كتابة «جوته» لهذه الأبيات كانت على أثر رحلته إلى بلاد القوقاز، حيث شهد ذلك «الفارس الحر» بأم عينيه. طبعًا، لم يراه متجسدًا، وإنما رأى المعنى الكامن وراءه... رأى الحرية - بنقائها وصفائها - متجسدة فى حياة الإنجوش، وهم قوم متفرعون من الشيشانيين. وهناك فى بلاد القوقاز، استمع الشاعر الألمانى إلى مقولة أحد الرجال، وهى مقولة تصف حالة البشر هناك، وهى: «فوق عمامته لا يرى إلا السماء». إن «فارس جوته» إذًا هو الرجل

الشيشـــانى، الذى لا ينحنى إلا لربه؛ فيقـاوم كل خضوع وكل هوى يتجه لغيره. لقد عكست الأبيات مدى التعاطف العميق الذى ولاه «جوته» تجاه تلك الحياة الحرة الحقيقية التى يعيشها أولئك القوقازيون.

لقد كان «جوته» متيمًا بتلك الحياة الطبيعية البسيطة غير المقيدة من أية متع مادية. وقد تجلى ذلك فى أحلامه التى عبّر عنها فى «ديوان الغرب والشـرق»، وكـذلك فى «هـجـرة» أو Hegire، حـينمـا تحـدث عن ذلك الهارب من أوروپا، الذى فر إلى «الشرق الأصيل» ولاذ به، ودخل بقوة فى ثنايا أعماقه الأصيلة؛ ليجد هناك المبادئ الإنسانية البديهية الأولى التى خلق عليها جنس البشر؛ «حيث ما زال هناك إيمان بالله وتصديق بكلامه. حيث ما زالت هناك تعاليم السماء تطبق على الأرض». **لقد كـان «جوته» يبـحث عن «الأصل» فى العـالم الحاضـر؛ كان يبـحث عن أبسط أسـاليب الحـياة وأنقـاها؛ تلك الأسـاليب التى كـانت موجـودة فى الشـرق...«الشـــرق الأصـيل النقى» كــمـا وصـفـه فـى «ديوان الغـرب والشـرق»**. «هناك فى بلاد النقاء والحق» يريد «الفارس» أن «يخطو فى كل طريق»، «فيختلط تارة مع الرعاة - فرجال الدين كانوا أنفسهم رعاة - وتارة مع التجار، فيصير تاجراً، كما كان «محمد» قبل بعثته كرسول. ذلك الفارس هو نفسه الشخص الذى ينظر «فوق قبعته»، فلا يرى إلا السماء. إلا أن «جوته» كان أكثر التحامًا وتعلقًا برجل القوقاز الذى كان «السرج» أو «البرذعة» أحب إليه من أمان «الخيام» و«الأكواخ».

وقد انعكس هذا التعلق فى طريقة استخدام «جوته» للغة، حيث أكثر من التلفظ بضمير «الأنا» وما يتصل به من ضمائر أخرى تعود على المتكلم (حوالى ثلاث مرات فى أربعة أبيات). فيقول: «اتركنى»، «أنا أمتطى الجواد»، «فوق قلنسوتى». **ويدلل هذا الاستخدام اللغوى على التعانق - الذى يكاد يكون لصيقًا - بين شخصية «جوته» التواقة إلى الحرية وإلى التحرر من متع الحياة وبين شخصية الفارس القوقازى الذى يرى فى سرجه أو برذعته قيمة أكبر من الحياة الهادئة فى الخيام والأكواخ.**

يصور لنا «جوته» السعادة الفتية المنبعثة من ذلك الفارس الذى يأتى من أقصى بلاد الأرض - الأمر الذى يوحى بانفتاح الطريق أمامه - ليجرى ويعدو كيفما يشاء، غير مبال بطول الطريق، ما دامت الإرادة موجودة. إن «جوته» يرسم لنا المناخ الَّذى يبغى التحرك فيه؛ مناخ «الحرية» و«الرغبة فى اختراق كل جديد».

أما «الليل» بسحره ونجومه، فله متناول خاص لدى «جوته»، حيث يفرد له أبياتًا خاصة، تتحدث تارة عن السماء المتلألئة بالنجوم، وتارة أخرى عن النجوم التى تتراقص بأنوارها فوق رأس الفارس الممتلئ بالفرحة الغامرة. . . فرحته باستقلاليته وهو ممتطى جواده العفى القوى. . فرحته بمنهج حياته. . فرحته بجمال الليل وانتعاشه، حيث تقول النجوم المتوهجة كلمتها الأخيرة، كما هو مكتوب فى الأصل «فوق قلنسوته لا يرى إلا السماء». **ومن الجدير بالذكر أن اختيار «جوته»**

للنجوم ارتبط ارتباطًا وثيقًا بكلمات ومعانى القرآن؛ فها هو مقطع شعرى رباعى يقول:

جعل لكم الكواكب والنجوم

لتهتدوا بها فى البر والبحر

لكى تنعموا بزينتها

وتنظروا دائمًا إلى السماء

لقد اعتاد «جوته» ـ كما هو حادث فى مواضع كثيرة بشعر «ديوان الغرب والشرق» ـ على انتصاف مقاطعه الشعرية الرباعية إلى نصفين: نصف من القرآن، ونصف من شعره. فالله يقول فى القرآن، فى سورة الأنعام، آية ٩٧: ﴿**وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾. هذا البيت الرباعى ـ كما نرى ـ يتميز بالطابع الشرقى؛ ففى أوروبا المكتظة بالسكان يكاد استخدام النجوم «كهاد فى البر» أن يكون منعدمًا، بينما هو أمر لا يستغنى عنه فى صحارى المشرق المطلة على البحار. ومن ثم، فبدون النجوم يدخل أهل الشرق فى حالة من التيه والظلمات. لقد صور «جوته» جمال الليل بنجومه المتلألئة، وصور الإنسان الذى يتأملها بامتنان وسعادة؛ ولكنه ليس أى إنسان، وإنما هو ذلك الإنسان الحر الذى لا يرى إلا النجوم فوق قلنسوته. فعليه ـ فى وسط استمتاعه بالتأمل ـ أن يستمتع أيضًا بتميزه فى وسط هذا الكون الفسيح؛ ليعلم فى النهاية بأن الإله العظيم ينظر إليه من خلال كل نجم

يتلألأ فى السماء. وكتب «جوته» فى ذلك قائلاً : «إذا كان الإنسان يشعر بذاته فى العالم كشعور الجزء من الكل - ولكن الكل الجميل القيم - وإذا كان هذا التناغم الكونى يمنحه تلك المتعة. . فإن الكون كله يصير هدفه وغايته. . وإلا فلماذا هذا التعاقب بين الشموس والكواكب والنجوم والضباب والأحياء والموتى. . . إذا لم يتواجد فى النهاية إنسان يسعد ويستمتع بوجوده على الأرض؟

فى شعره «حرية العقل» جعل «جوته» الفارس الشيشانى رمزًا إنسانيّا للحرية. وهنا يطرح «جوته» لب أو قلب الحرية. . . ألا وهو «حرية العقل»، أو «عقل الحرية»، أو «العقل للحرية» (استخدام «جوته» لأكثر من مصطلح). إن شعره عن «حرية العقل» يعكس المدلول الحقيقى للحرية؛ ألا وهو سيادة الإنسان على نفسه أو ذاته. إنه يعكس سعادة الإنسان التى لا يعيها...سعادته وهو جالس تحت النجوم، فى أمن وأمان تحت ظل سماء الخالق القادر على كل شيء، ليتفجر منه إدراكه ووعيه بحريته التى تدفعه لمقاومة كل ذل وخضوع.

ومن العجيب أن نرى ذلك الشيشانى بعد ذلك - الذى خصه «جوته» بإدراكه العالى للحرية - يتهم الآن بالإرهاب من قبل الروس؛ بل إن الشعب الشيشانى بأكمله متهم دون بقية العالم بالإرهاب. ومن ثم، تساء معاملته إلى أقصى درجة. وحتى إذا انتهك أحدهم أبشع الجرائم الإرهابية، فهذا لا يبرر أن نقذف كل الشعب بالإرهاب. والأخطر من

ذلك، أن يتم قهر الحرية نفسها تحت حجة الإرهاب؛ تلك الحرية التى أدرك منها هذا الشعب الكثير، والتى كافح لإنقاذها حتى القرن الواحد والعشرين. إن رفض هذا الشعب لأشكال حكومية غريبة عليه، ورفضه الخضوع والاستسلام، وإصراره على حماية استقلاليته لا يعنى أبداً أنه إرهابى. وهذا هو الخطأ الذى وقع فيه عالمنا اليوم، حينما ذم رغبة الشعوب فى الحرية، فصورها على أنها إرهاب. وكان على العالم - بدلاً من ذلك - أن يتعلم من هؤلاء البشر غير الحداثيين؛ يتعلم منهم حب الموت وتفضيله عن حياة الذل والهوان، يتعلم من لغتهم التى لا تعرف كلمة «أمر»، يتعلم من نظريتهم فى الحياة التى لا تعترف بحق الأقوى، ومن ثم ترفض عقلية العبيد.

إن تعاطف «جوته» مع وجهة نظر مثل هذه، يدفعنا إلى إعادة تفكيرنا حول هذا الشعب المهدد بقاؤه فى وقتنا الحاضر لمجرد أنه يأبى عيش العبيد، ولمجرد أنه يرفض السجود إلا لخالقه. إن شعر «جوته» عن «حرية العقل» لا بد أن يكون علامة إنذار لنا؛ لتحذرنا من إبادة هذا الشعب الأبى الكريم، وإبادة جذوره العزيزة، وإلا سنكون بصدد ضياع قيمة غالية الثمن - قيمة لا تقدر بمال - قيمة الحرية، وقيمة الوعى بها.

❊ ❊ ❊

أحداث على هامش «ديوان الغرب والشرق»

فى أكتوبر ١٨١٣م، قام ضباط ألمان من ولاية «فايمر» بزيارة «جوته» فى بيته. جاءوا إليه - بعد خروجهم من الحرب فى إسپانيا - محضرين له ورقة تحمل مخطوطة عربية. . . إنها السورة الأخيرة فى القرآن، سورة الناس. وصل شغف «جوته» بهذه المخطوطة - فى خطها العربى والفارسى - لدرجة أنه قام بمحاولات عديدة لتقليد هذه المخطوطة بيده. أما عن محتوى هذه المخطوطة، فهو عبارة عن أمر إلهى للرسول «محمد» باللجوء إلى الله والاحتماء والإعاذة به من شرور الوساوس الحقيرة. واللافت للنظر، أن لحظة وصول المخطوطة إلى يد «جوته»، كانت بمثابة إشارة أو علامة تلقاها الشاعر الألمانى؛ وكأن الله يأمره هو بهذا الأمر؛ وأكبر دليل على ذلك، ما كتبه فى مطلع «ديوان الغرب والشرق» الذى عكس أمراً صادراً عن صوت عالٍ، يأمر باللجوء إلى «السيد».

ومن الأحداث الأخرى، التى صاحبت «جوته» فى أثناء كتابته لـ«ديوان الغرب والشرق»، قدوم الضباط البشكيك المسلمين إلى «فايمر» فى ديسمبر ١٨١٣م؛ حيث جاءوا من ضمن ضباط الجيش الروسى

المتحـالف مع ألمانيـا آنذاك ضـد ناپوليـون. لـم يكـن «جـوته» يتـوقع أبدًا مخالطته لهؤلاء المسلمين الذين وصفهم فى رسالة له ـ كتبها إلى صديقه «فـريدريش فـيلهـيلـم هاينريش» ـ قـائلاً : «لديهم هيبـة خـاصـة»، «هم ضيوف أحباء». بل إنه سارع فى استضافتهم فى بيته، كما هو مكتوب فى مذكراته اليومية؛ حيث تم فى هذه الاستضافة تبادل الهدايا. . . فتلقى «جوته» سهامًا وأقواسًا . . قام بتعليقها على مدفأته، محتفظًا بها حتى موته.

تم إعداد قاعة پروتستانتية كبيرة للبشكيك؛ لكى يقيموا فيها صلاتهم الجماعية ـ صلاة الجمعة. وبالصدفة، وقع موعد إقامة أول صلاة جمعة لهم فى «فايمر» فى يوم ٢٤ ديسمبر ١٨١٣م، وهو اليوم الذى يتوافق مع «ليلة الميلاد» التى احتفل بها المسيحيون فى كنيسة «بيتروباوكس» الواقعة على مقربة من القاعة البروتستانتية. أما الكنيسة، فكانت هى بذاتها التى كان يلقى فيها «هيردير» خطبه حتى وافته المنية فى عام ١٨٠٣م. لقد كان «هيردير» ذلك المعلم الذى ربّى تلميذه النجيب «جوته» على التسامح تجاه الآخر، والذى دفعه إلى دراسة القرآن، كما كان له الفضل الكبير فى ترسيخ تلك العقلية الليبرالية ـ تجاه الإسلام وتجاه العالم العربى ـ فى عقلية الشاعر الشاب. وها هو يأتى اليوم ـ بعد عشرة أعوام من موت «هيردير» ـ ليقيم المسلمون صلاتهم بجوار كنيسته؛ وقد اشترك «جوته» فى هذه الصلاة، واصفًا هذا الحدث الفريد فى رسالة له فى يناير ١٨١٤م: **«لقد حدث فى وقتنا أمور لم يكن للأنبيـاء أن يسمحوا بفعلها.**

فمن كان يستطيع أن يتخيل أن تصير القاعة البروتستانتية مكانًا للعبادة المحمدية، وأن تُتلى فيها آيات القرآن..نعم لقد حدث هذا بالفعل».

وفي رسالة أخرى، كتبها «جوته» إلى ابنه «أوجوست»، ذكر الشاعر الألماني حادثة فريدة من نوعها، وهي قبول الكثير من السيدات المتدينات على المكتبات لشراء ترجمات القرآن؛ وهو الأمر الذي يعكس مدى التأثير الذي مارسه «جوته» على محيطه ومجتمعه بخصوص النظر إلى البشكيك.

لم يكن الأمر صدفة، حينما افتتح «جوته» «ديوان الغرب والشرق» بتلك الافتتاحية المسماة بـ «الهجرة» أو Hegire في نفس العام الذي قدم فيه البشكيك إلى «فايمر». فقد رأى «جوته» المسلمين مجتمعين في صلاتهم، كما يفعل أصدقاؤهم المسيحيون. فكلهم في النهاية يتجهون أو «يهاجرون» إلى خالقهم الواحد، حتى ولو في ظل طقوس دينية مختلفة.

كان اندلاع الحروب ـ وقتها ـ فرصة استثمرها «جوته» جيداً لتناول الحوارات الغربية الشرقية في «ديوان الغرب والشرق»، مبتدئًا ـ كما قلنا سالفًا ـ بالافتتاحية الشعرية الكبيرة «الهجرة»، التي تذكرنا من خلال عنوانها بهجرة النبي «محمد» من مكة إلى المدينة، والتي ارتبطت أيضًا بيوم ٢٤ ديسمبر ١٨١٣م، الذي شهد فيه «جوته» قمة التسامح بين الديانتين: الإسلام والمسيحية.

وكـان أيضًا من ضمن الأحـداث، التى أثرت على «جوتـه» فى أثناء كتابته لـ«ديوان الغرب والشرق»، تلقيه لمخطوطات عربية أخرى، بعد المخطوطة الأخيرة التى كانت تحتوى على السورة الأخيرة من القرآن. فقد فوجئ «جوته» بمخطوطات عربية أخرى، تنهال عليه، بدون سابق إنذار أو إعداد. أما من أتاه بها، فهو تاجر ألمانى من «لايبتسيج»، لجأ إليه لكى يساعده على إصدار أكبر عدد من المخطوطات العربية والفارسية والتركية، المطلوبة من قبل المكتبة الألمانية. وكانت هذه فرصة جيدة، سنحت لـ«جوته» لكى يشغل نفسه بالمخطوطات القرآنية، وكذلك بما كتبه الشعراء العرب والفرس، قبل أن يقع فى يده ديوان «محمد شمس الدين حافظ» (١٣٠٠-١٣٨٩م) فى عام ١٨١٤م، الذى كان قد تُرجم على يد «جوزيف فون هامارز».

كل هذه الفرص - غير المرتقبة - كانت عبارة عن تمهيدات لـ«ديوان الغرب والشرق». فكان وقوعه على ديوان «حافظ» دافعًا جديدًا له؛ لكى يتعامل مع الإسلام من منظور فى منتهى السمو والرقى. إلا أن ديوان «حافظ» لم يكن ليترك هذا الأثر على «جوته» بدون تعرفه - قبل ذلك - بأناس مسلمين مثل البشكيك؛ وكذلك وقوع عينيه على المخطوطات القرآنية، مثل وقوعهما على دواوين الشعراء المسلمين.

«ديوان الغرب والشرق»:

فى مايو ١٨١٤م، ظهرت أولى إصدارات «ديوان الغرب والشرق»،

ذلك العمل الذى ترسخ وتجذر كلية فى الوعى الإسلامى، فى محيطه، وفى إدراكاته. **لم يكن لهذا العمل أن يتشكل أو يتكون أو يخرج إلى النور بدون علاقة «جوته» الإيجابية والمتفتحة تجاه الإسلام، التى بدأت منذ صباه، والتى تجلت فى أشعاره، وأخيراً التى انبنت على أساس واسع ومتوسع من العلم والمعرفة**. وقد أفصحت هذه العلاقة عن نفسها - فى سابقة فريدة من نوعها - حينما كتب «جوته» أحد تعليقاته على «ديوان الغرب والشرق» فى عام ١٨١٦م قائلاً: «إن مؤلف هذا العمل لا ينفى الفكرة بأن يكون هو ذاته مسلمًا». وهى مقولة استفزت معظم الألمان الذين كانوا يعيشون فى بلدته، فى ذلك الوقت.

ولنفتح سويّا «ديوان الغرب والشرق»، لنرى أول ما واجهنا به «جوته» عن نظرته للعالم والكون:

الشمال والغرب والجنوب تتناثر وتنهار

العروش تثل، والممالك تضطرب

فهاجر أنت إلى الشرق الطهور

لتستروح نسيم الآباء الأولين

ولنلاحظ هنا، أن الافتتاحية «الروحانية» التى بدأ بها «جوته» ديوانه - والتى تتحدث عن الأصالة الدينية فى الشرق النقى - تندرج تحت عنوان «الهجرة» (كما ذكرنا سالفًا)، أى ترتبط ببدء هجرة النبى محمد ﷺ

إلى المدينة فى عام ٦٢٢ ميلاديّا ، وهو عام تأسيس الدولة الإسلامية، كما هو عام تدشين التاريخ الإسلامى . وكذلك ترتبط الافتتاحية ـ كما قلنا فى السابق ـ بحادثة «عيد الميلاد» ، وهى الليلة التى يُحتفل بها أيضًا بتأسيس عهد جديد فى الديانة المسيحية ، حيث ميلاد المسيح . وهو أيضًا اليوم الذى شهد أول صلاة جمعة للبشكيك فى القاعة الپروتستانتية بولاية «فايمر» .

ومن المفارقات العجيبة ، أن يترعرع «جوته» وأن يتربى فى وسط جو أسرى پروتستانتى ؛ فقد ربته أم شديدة التمسك بالإنجيل ، ومن ثم احتسب نفسه من ضمن الجماعات الپروتستانتية ، المعروفة بتمكنها من معرفة الكتاب المقدس . وقد يصف «جوته» نشأة المسيحى المتمسك بالإنجيل فى «ديوان الغرب والشرق» ، فيقول : «إنه ملزم بتلقى تعليم عال ؛ لأن عقله مشغول على الدوام بكل ما هو عزيز وكريم» . **إن التقاء الإسلام مع المسيحية ـ كما صوره «جوته» فى ديوانه ـ يعبر عن رغبة الشاعر فى عبور التناقضات العدائية بين الديانتين؛ وجمع هذين العالمين الروحيين تحت مظلة السلام، أو قل تحت برنامج السلام.**

وكذلك يتحدث «جوته» ـ من واقع تجربته كمسيحى متدين ـ عن المشاعر الأخوية التى كان يحملها للشاعر الفارسى «شمس الدين حافظ» ، وهو المعروف بلقب «حافظ» ، ذلك اللقب الشرفى الذى عكس حفظه للقرآن كله ، ومن ثم دل على إخلاصه الشديد للإسلام . وقد يفاجأ القارئ هنا بتلك المشاعر ؛ لأن «حافظ» كان يعيش فى القرن الرابع

عشر الميلادى؛ بلغة أخرى، لقد مات منذ زمن بعيد، أى قرابة أربعة قرون قبل ميلاد «جوته». وبالرغم من ذلك، نجد الأخير يؤلف عنه «كتاب حافظ» - من ضمن كتب «ديوان الغرب والشرق» - الذى تخيل فيه حوارًا كاملاً بينه وبين ذلك الشاعر الفارسى. بل إن «جوته» وصفه بكونه «توأمًا» له. فهل هناك قرابة أشد التصاقًا من قرابة التوائم؟ أليس هذا عجيبًا . . ؟ أن يشعر «جوته» بتلك الأخوة غير العادية - أخوة التوائم - تجاه إنسان مات قبله بأربعة قرون؟ أليس هذا لافتًا للانتباه، ومثيرًا للدهشة . . . أن يحمل «جوته» كل هذه المحبة لإنسان كان بعيدًا عنه كل البعد؛ بعدًا زمانيّا، وبعدًا مكانيًا، وبعدًا لغويّا، وأيضًا بعدًا تقليديّا. باختصار، لقد كتب «جوته» «كتاب حافظ» ليُرى القارئ إلى أى مدى يمكن أن تصل حميمية العلاقة بين المسلم والمسيحى. وديوان «جوته» - وكلمة (ديوان) تعنى هنا جمع البشر - لم يقتصر فقط على «التوائم» بل امتد ليشمل حوارات متعددة الأشكال بين الغرب والشرق.

وهنا يأتى أمامنا عدد غير قليل من الشخصيات الشرقية: النبى «محمد»، شاه «عباس الكبير»، «تيمور الفاتح»، السلطان «سليم»، الشعراء «حافظ»، «الفردوسى»، «المتنبى»، «حاتم الطائى»، وغيرهم. فى «ديوان الغرب والشرق»، يعطى هؤلاء آراءهم، مثلما تعطيها الشخصيات غير المعروفة، ابتداء من الجواهرجى والتاجر فى البازار إلى الشحاذ. ويمكن القول إن الديوان - بكتبه الاثنى عشر - كان حافلاً بنماذج كثيرة وبأمثلة عديدة عن كيفية وإمكانية الحوار بين الغرب والشرق.

هذه الثقة العالية فى تصورات الشرق ومعتقداته، التى أبرزها «جوته» فى «ديوان الغرب والشرق»، لم يكن لها أن تظهر بدون ثقة مؤلفها فيما يكتب، وبدون إدراكه العميق لما يكتب. فكيف كان للـ «ديوان» أن يظهر فى الأفق، إذا لم يكن مؤلفه نفسه يتحدث بلسان الواثق المدرك بما يقول؟

بلغة أخرى، لم يكن يتسنى لـ«جوته» أن يضبط تعامله مع المسائل الدينية، وأن يتحرك بثقة وبنضج بين الجد والهزل، بدون جمعه بين اليقين والإدراك. وكذلك، فإن عدم ظهور أى «نشاز» فى «الديوان» كان مرجعه أساسًا إلى تقديره العالى والمتميز للإسلام. ولنتذكر سويّا تلك الأشعار، التى أشار فيها «جوته» إلى «القرآن المقدس»؛ ولنقرأ معًا هذه الأبيات:

هل القرآن قديم

شىء لا أسأل عنه

هل هو مخلوق؟

شىء لا أدريه

أما كون القرآن كتاب الكتب، فهذا ما أعتقد ويفرضه واجبى كمسلم.

الكثير من أبيات «الديوان» تعتمد ـ كما ذكرنا سالفًا ـ على القرآن؛ فبعض الأشعار تتشكل فى نصفها الأول مما ذكره القرآن، وتتشكل فى نصفها الآخر من أبيات «جوته» التى كان يُلحمها بأبيات القرآن. فعلى

سبيل المثال، نجد فى «كتاب المغنين» أبياتًا أوصلها «جوته» بالسورة الأولى من القرآن (الفاتحة)، وتحديدًا بالآية السادسة التى تقول: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧]. فتقول الأبيات:

ينازعنى الغى والضلال

لكنك تعرف كيف تهدينى

اهدنى أنت في أعمالى

وفى أشعارى الصراط المستقيم

لقد استخدم «جوته» كلمة «الهدى» التى وصفها المسلمون ـ منذ زمن بعيد ـ بـ«الشريعة»، أى الصراط المستقيم؛ وهذا هو المعنى الحقيقى لكلمة «شريعة»، التى أعيد تفسيرها مؤخرًا من قبل الإسلام السياسى. ونجد فى مقطع رباعى آخر نفس المزج بين آيات القرآن وبين أبيات «جوته»، معطيًا دليلاً آخر عن المزج «الغربى الشرقى»؛ فها هى أبيات تلقى الضوء على السورة الثانية من القرآن (البقرة)، وتحديدًا على الآية الكريمة: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]..

لله المشرق

لله المغرب

الأرض شمالاً

والأرض جنوبًا

ومن هذه المقولة «الغربى الشرقى» - التى آمن بها «جوته» إيمانًا عميقًا - استطاع الشاعر الألمانى أن يُخرج مخطوطتين عربيتين، أظهر فيهما جمال الخط العربى، ذلك الخط الذى أبهره، فَأَكَنَّ له فى نفسه منزلة عظيمة. ونحن اليوم، ندرك جيدًا أن تحفز «جوته» لكتابة تلك الأبيات إنما كان ينبع - أولاً وأخيرًا - من تأثره بالقرآن. وقد تعلم «جوته» الاقتباس من القرآن، واستخدامه فى الشعر، من«جوزيف فون هامار» صاحب كتب «أسرار الشرق المدفونة»، التى قال فى مطلعها:

قل: لله المشرق ولله المغرب

يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

اقتباس من (سورة البقرة)

إن «هامار» - الذى كان له دور كبير فى إخراج الخط الشرقى القديم - استخدم اقتباسات القرآن ليضعها فى كتبه الستة حول «أسرار الشرق المدفونة» التى ظهرت فيما بين ١٨٠٩ و ١٨١٨م. بل إن كلمة «القرآن» قد تم وضعها من قبل «هامار» على الصفحة الأمامية - صفحة العنوان - التى تندرج تحتها الكتب الستة، والتى لا بد أن تكون قد جذبت انتباه «جوته» منذ الوهلة الأولى. وقد ذكر «جوته» «أسرار الشرق المدفونة» لأول مرة - فى مذكراته - فى يوم ١٢ ديسمبر ١٨١٤م.

لقد كانت قناعة «جوته» بالمزيج «الغربى الشرقى» مترسخة فى عقله، وفى وجدانه، لدرجة أنه كان يكتب لأصدقائه الكاثوليك المتزمتين، ومنهم «بواسيريه» و«لافاتير» الذى أشرنا إليه سالفًا. فكان - على سبيل المثال - يكتب إليهما قائلاً: «إنه يوميّا يتم قراءة (هومير) و(حافظ)». **وبالرغم من أن هذا الكلام لم يكن يروق للصديقين الكاثوليكيين المتزمتين، إلا أن «جوته» لم يكن ليعاملهما إلا بكل رفق وبشاشة؛ فأعطى لنا مثلاً حيّا عن العقلية الليبرالية المتفتحة مع الشعوب والديانات الأخرى، أو كما نقول اليوم، العقلية «العالمية» و«التعددية الثقافية».**

ولم يعبأ «جوته» فقط بالشرق والغرب، وإنما عبأ أيضًا بالشمال والجنوب؛ فها هو يقول: «وكذلك الشمال مثل الجنوب لم يخف عن عينه أبدًا». **إن إصرار «جوته» على ذكر الجهات السماوية الأربع فى مقولته الشهيرة «لله المشرق» كان نابعًا - فى الأصل - من إيمانه المتجذر فى أعماقه بوحدة الخلق الإلهى؛ ومن ثم حرصه على توضيح هذه الحقيقة، وإبرازها للجميع**. وفى هذا الصدد اكتشف شاعرنا الألمانى رابطًا آخر بين الشرق والغرب، حيث ربط بين مقولة القرآن ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**﴾ وبين رمز المسيحية فى الغرب - وهو الصليب - إذ تخيل خطوط الشرق والغرب فى تعارضها مع خطوط الشمال والجنوب فى صورة صليب.

كذلك تصور العالم وكأنه كرة أرضية تسكن فى يد الإله؛ ورمز الكرة الأرضية مترسخ فى العقلية المسيحية؛ فإذا ما قسمت من قبل الخط الذى

يربط بين الشرق والغرب (أو من قبل الصليب الذى يتخيله) فإنها تصير نصف دائرة، التى تمثل - مرة ثانية - علامة الهلال. . رمز الإسلام. باختصار، لقد كان يرى المسيحية والإسلام كوحدة واحدة لا يفصلها شىء. وبالرغم من أن عديدًا من اللوحات والصور - فى القرون الوسطى - كانت تعكس توافق الدائرة مع الصليب، كرمز مسيحى للعالم، فقد كان يراه «جوته» رمزًا للوحدة.

طبعًا، لا يمكن الافتراض بأن «جوته» كان يعلم كل ذلك عند لحظة اكتشافه للقرآن؛ فالتعرف على الأجنبى مثل التعرف على الذات. . تعرف طويل وشاق، تتدافع فيه آلاف المسائل مع بعضها البعض بقوة البرق؛ **إلا أنه ما من شك، أن تعرف «جوته» على نفسه قد تم تلقائيًا عند قراءته للقرآن؛ فكانت مقولة ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ هى رمز أعماله وكتاباته.**

وكان مما لفت انتباه «جوته» - وكتب عنه فى «ديوان الغرب والشرق» - تقليد الأحجبة الشرقية الذى أفرد له عنوانًا فى «الديوان». لقد تعامل مع تلك الأحجبة، واستقى معلومات حولها من الكتابات الموجودة فى «أسرار الشرق المدفونة»؛ فوصفها على أنها «وريقة مكتوب عليها دائمًا أدعية مخلصة ومؤمنة». وبعدها عرف أن المسلمين يهتمون بتعليقها على أجسادهم (حول العنق، أو الذراع، أو الرأس)، كنوع من الحرز ضد جميع وشتى أصناف الآلام. كان مفتونًا بذلك التقليد الشرقى العجيب

الذى كان يضع وسيلة سحرية للعلاج على وريقة صغيرة. اقتنع بهذه الأحجبة، إلا أنه كان يرى - فى النهاية - الحجاب الحقيقى متمثلاً فى «الكلمة الطيبة» وفى «التوازن الروحى»، وأن السلام لا يتحقق إلا عند الله.

كان «للشمال» موقع خاص فى منظور «جوته» الذى ينتمى فى نهاية الأمر إلى بلاده ألمانيا التى تقع فى الشمال. وكما **يحدث فى داخل قشرة البندق، صوّر لنا «جوته» مسيرته الروحية، وكيف تمددت وتطورت، وكيف خرجت إلى العالم بعد احتكاكها بالشرق؛ فكانت النتيجة توصله إلى حقيقة مفادها أن الشرق والغرب قطبان يتدرجان سويًا فى داخل الكون، وأن السلام والأمان يتواجدان عند الله مالك المشرق والمغرب.** لقد اعترف شخصيًا - من خلال «كتاب الأحجبة» - بأنه بالرغم من كل الآلام والشكوك التى كانت تحاصره وتفاجئه، إلا أنه استطاع العثور - فى وسط كل هذا الضنك - على سلام جديد، وجده عند الإله؛ وهو الهدف الذى وضعه أمام عينيه، والذى طالما تجلى فى «ديوان الغرب والشرق»، ثم بعد ذلك فى «كتاب الجنة».

ولكن هل فعلاً كان «الشمال» و«الجنوب» يسكنان بسلام فى قلبه وفى خلده؟ الحقيقة هى: أننا دائمًا نميل إلى التحدث عن «جوته» وعن «تطوره الظاهرى» بدون الالتفات إلى أعماقه، التى كانت حافلة بالصراعات والسجالات بين «الشمال» و«الجنوب»، بين «جوته الشمالى

الألمانى» وبين «جوته الجنوبى الكلاسيكى». كان يرى المسافة بين صباه وشبابه وبين تحوله إلى سن النضج والعقل، كان يدركها بقوة، وقد عكس كتابه «فاوست» فى عام ١٧٩٧م هذا الأمر بمنتهى الوضوح، كما عكس حقيقة أن هذه المسافة لا يمكن عبورها إلا من خلال الأزمات والهزات القوية. **ومن ثم، فإننا لا يمكننا القول أو الافتراض بأن «الشمال» و«الجنوب» كانا يخلدان فى سلام وأمان..فى داخل نفسه.**

فحتى لحظة كتابته لـ «ديوان الغرب والشرق» كانا المفهومان يتعاركان فى داخل عقله وقلبه. . ويضربان بعضهما البعض بمنتهى القوة. فى البداية، كان يذم «الشمال»، إلا أنه بعد اكتشافه للشرق، توازن وانضبط لديه الأمر، وتعادلت عنده المسألة، التى كان من آثارها المباشرة توجهه غير المتوقع نحو الرسامين الفطاحل فى هولندا والدانمارك والسويد، الذين وصفهم من ضمن رحلته على نهرى «الراين» و«الماين»، فى الوقت الذى كان يحتفظ فيه بديوان «حافظ» فى حقيبته. **لقد ارتأى « الحقيقة؛ فوضع التضاد فى قالب واحد، جاعلاً التناغم والانسجام أساس العلاقة بينهما؛ فوضع الفن «الشمالى» مع نظيره «الجنوبى» على نفس الخط». باختصار، لقد حوّل نفسه تجاه قانون القطبية والتدرج.**

من خلال تجربته مع الشرق، تفتحت مدارك «جوته» نحو الحقيقة، وتحرر عقله من أمور كثيرة لم يكن يفهمها، ولم يكن يستوعبها. فكانت هذه التجربة هى المادة الخام التى كان دومًا يستخلص منها حقائق الأمور؛

وظل على هذا الأمر حتى وافته المنية. ومن ثم، نجد فرقًا هائلاً بين أعماله الكلاسيكية المثالية التى كتبها فى بداية شبابه - مثل «فاوست» و«سنوات الرحالة فيلهيلم» - وبين ما كتبه بعد وصوله إلى سن النضج والرشد؛ حيث شهدت مقاطعه الشعرية الرباعية تحولاً ملحوظًا فى صنعته الفنية وصياغته الشعرية. بعد احتكاكه بالشرق والقرآن، اجتثت من داخله الكثير من الحواجز التى كانت تخبئ وراءها ميله الفطرى نحو الكونية. ومن ثم، كان دائمًا يدين بالفضل لتلك «التجربة الشرقية» الرائعة.

ومن الجدير بالذكر، أن هذا الانفتاح صوب الكونية احتوى فى الوقت ذاته على درس كبير لجميع البشرية، وهو: **أن يتجه المرء فى أمن وسلام - حتى ولو بالمعنى السياسى - نحو الكونية الإلهية والروحانية.** ألا يكمن هنا روح «الديوان» كله؟ بلى، فهو ذاخر بالوصايا - بطريقة غير مباشرة - نحو التحول إلى الأسمى. فإعطاء العلم هو فى النهاية دافع إلى التحول؛ وأخذ العلم هو فى النهاية تحول إلى الأسمى، وقد أشار إليه فى «كتاب الجنة»، حيث وصف التدرج من الدرجة الأساسية إلى الدرجة المقارنة، إلى الدرجة العليا والأفضل. هذا بالإضافة إلى تخيله لوصية النبى «محمد» فى هذا الصدد؛ فكتب على لسانه قائلاً: إنه ينبغى وجود تعارف بين الشرق والغرب فى قالب إسلامى كله تسامح وانسجام، أو فى ظل كونية مسلمة تعترف بكل الجهات الأربع، وهو ما كان يعنى لـ «جوته» الشرط الأدنى لتحقيق الإنسانية.

كانت مقولة «لله المشرق» دائمًا محل اعتبار «جوته»؛ فمن خلالها كان يرى مشيئة الإله التى تحدد فى النهاية أقدارنا ومصائرنا. إن مسألة الهداية للأقدار والمقادير كانت دائمًا شغله الشاغل؛ ولذلك أكثر من الحديث عنها فى «ديوان الغرب والشرق»، وفى«كتب الأمثال». فمن ضمن ما قال:

رب الخلق قد دبر كل شىء

تحدد نصيبك، فاتبع السبيل

بدأ الطريق، فأتم الرحلة

أو كما يقول فى بيت آخر فى «كتاب التأمل»:

إن أقمت فى العالم، فر كالحلم

وإن رحلت حدّد القدر طريقك

لقد آمن «جوته» بأن مشيئة الله هى التى تحدد طريق حياتنا، وهى التى تحدد شكل وجودنا. فنجده يعبر عن ذلك فى «كتاب الجبن» قائلاً:

لو قدر الله علىّ أن أكون دودة

لخلقنى دودة

فى «ديوان الغرب والشرق» أشار «جوته» ـ من خلال مصير «سوليكا» المعروف سلفًا ـ إلى الاعتقاد الإسلامى فى القدرة الإلهية؛

فالمصير المعروف سلفًا لا بد أن يكون له من يعرفه، ومن هو أكثر دراية وعلمًا عن المستوى البشرى. هكذا استخدم «جوته» «مصير سوليكا» استخدامًا مشرقيًا ليدلل على تأييده للرؤية الإسلامية للذات الإلهية، التى أبرزها بأكثر من طريقة فى «الديوان». فها هو يعظم ويمجد من تعاليم الإسلام حول عقيدة التوحيد فى الأبيات التالية، ملقيًا الضوء على السورة الثانية من القرآن:

لقد اختار إبراهيم سيد النجوم

إلها لنفسه،

وموسى، فى تيه الصحراء،

صار عظيما بفضل الواحد الأحد:

* * *

ويسوع كان طاهر الشعور، ولم يؤمن،

فى أعماقه، إلا بالله الواحد الأحد.

ومن جعل منه إلهًا،

فقد أساء إليه وخالف إرادته المقدسة.

وهكذا، فإن الحق

هو ما نادى به محمد،

فبفكرة الله الواحد الأحد

ساد الدنيا بأسرها

وكذلك شحذت سورة البقرة انتباهه، فجعلته يكتب أبياتًا يصف فيها قدرة الإله التى تتجلى وتنعكس كالمرآة من خلال آيات الطبيعة والكون، ويصف حبه للإله الواحد الذى ليس كمثله شىء؛ فيقول فى مقطع رباعى فى «كتاب المغنى»:

إنه هو وحده العدل

يهدى الناس جميعًا للحق

فلتسبحوا إذن بهذا الاسم المكين

من بين أسمائه المائة آمين.

لفت انتباهه صفات الإله التى لا تحصى، وأسماؤه العديدة التى تصل إلى المائة، وتجلى هذا الانبهار - أحسن ما يكون التجلى - فى حديثه مع «إكيرمان»، الذى كتب له فى ٨ مارس ١٨٣١م (قبل موته بعام) قائلاً: «طفلى العزيز! ماذا نعلم نحن عن فكرة الألوهية؟ وماذا يمكن لمفاهيمنا الضيقة أن تقول عن الذات العليا؟ إذا أردت، مثل الرجل التركى، أن أذكر الذات الإلهية بمائة اسم، فلن يكون ذلك كافيًا، مقارنة بالصفات التى لا تعد ولا تحصى، والتى لم أذكرها بعد». ومن المفترض - فى ظل هذا السياق - أن يُذكره هذا التصور الإسلامى عن أسماء الله المائة بمفهوم

الألوهية لـ«سپينوزا» الذى قال: «هو الإله الواحد، صاحب الصفات غير المعدودة، التى لا يتصور منها الإنسان إلا القليل، ولا يعلم منها إلا الزهيد».

وفى حديثه مع «إكيرمان»، تطرق إلى الربط بين «المائة اسم» وبين «القوة الخفية المؤثرة» التى تحدد الأقدار والمصائر، والتى تحدد سعادتنا أو شقاءنا. لقد استولى الإسلام، كما استولى «سپينوزا» (أحب الفلاسفة إلى «جوته») على عقل الشاعر الألمانى.. على خلده... على لبه. **لقد شغفته الرؤية الإسلامية للذات الإلهية، كما شغفته الفلسفة السپينوزية حول القدر والمصير. ومن ثم، كان تنقله كشاعر ألمانى فى مجالات الديانة الإسلامية سهلاً ورشيقًا، مقارنة بالشعراء الآخرين.**

وبجانب هذه الرؤية، وبجانب هذه الفلسفة، كانت هناك شخصية الرسول «محمد» التى لم تكن أقل تأثيراً عليه، فكانت بمثابة المدفأة التى تدفئ جسده. وكان «ديوان الغرب والشرق» شهيداً على ذلك التأثير المحمدى؛ وكذلك «كتاب الجنة» حيث أبرز فيه هيئة النبى تشع ضياء ونوراً.

منذ شبابه، وهو مشغول بطبيعة الرسول محمد ﷺ .. بشخصيته.. بذاته. كان كثيراً ما يقارن بين عمل الشاعر وبين رسالة النبى التى تأخذ بأرواح البشر، وتشد جميع الإخوة فى الإنسانية إلى

السمو والعلو. يرى كثير من المسلمين، القرآن مجموعة من الشعر والنثر والأدب، إلا أن «جوته» ارتأى الأمر مختلفًا؛ فوضع حدودًا صارمة بين الرسول وبين الشاعر. صحيح أن الاثنين ـ كما يقول ـ متعلقان بالله فى غبطة وسعادة، إلا أن الشاعر يتمثل عمله أصلاً فى «إعطاء المتعة» لكونه فنانًا يسعى إلى التعبير عن فنه بشتى الصور والأشكال، بدون حدود، وبدون عقبات، فيصير تأثيره فى النهاية خاليًا من الأهداف. وعلى العكس، ينظر الرسول ويصوب عينيه تجاه «هدف محدد». فهو فى الأساس يريد أن يبلغ رسالة، وأن يوقظ إيمانًا، مستخدمًا أبسط السبل وأيسرها. وهنا يكون الأسلوب المبسط الهادئ هو المطلوب. . من أجل لم شمل المؤمنين، ويعلل «جوته» ذلك قائلاً: «الإنسان متعدد الألوان والأمزجة لا يصدقه أحد. . ربما يعرفه».

فى هذا السياق، وصف «جوته» ـ فى «فصل محمد» ـ القرآن بمنتهى التأنى، ذاكرًا أنه ليس له مثيل على وجه الأرض. وعندما تقدمت به السن، صار أكثر إدراكًا للفارق بين الرسول والشاعر. لقد أدرك أن الرسول لا يحتاج إلى وسائل لتبليغ رسالته، بينما يكون الفنان فى أشد الحاجة إلى الوسائل لتبليغ فنه.

من خلال «الفصل محمد» يمكن لنا أن نرى مدى الاحترام الذى أكنه «جوته» ـ فى سن النضوج والكبر ـ تجاه رسول الإسلام. كما يمكن لنا أن نلمس النقاط الأساسية فى الإسلام التى تعاطف معها أشد ما يكون التعاطف، والتى أيدها أشد ما يكون التأييد. كان من بين هذه النقاط،

الخضوع والاستسلام لمشيئة الله التى طالما سلط عليها الضوء. **كان يرى أن «خصوصية الإسلام» تتمثل فى ذلك الاستسلام. لقد كانت «خصوصية الإسلام» هى الموضوع المفضل لديه، والمحبب لقلبه على الدوام، فكان ينهل منه باستمرار بدون إحساس بشبع أو اكتفاء.**

بعد ظهور «ديوان الغرب والشرق»، بدأ «جوته» فى كتابة مجموعة من الأشعار الشرقية، ساردًا فيها أكثر ما شد انتباهه فى عالم الفكر الإسلامى؛ ولم ينس طبعًا فى هذا الصدد أن يذكر «الاستسلام الحتمى لمشيئة الله وقدره». وبتركيز غير معتاد، تحدث فى «ديوان الأرقام والمعاملات» عما يتميز به الشرق من فنون التأمل والتفكر، موضحًا كيف استخدمها بمنتهى البراعة والفطنة فى مواجهة أزمات الحياة. فقال فى ذلك: **«أينما تشتد علينا أزمات الحياة الدنيا، وتقف أمامنا بمرارتها وقسوتها، يصِرْ لزامًا علينا الانحناء إلى الله، والاستسلام والتضرع إليه؛ فالاستسلام هو القانون الأعلى فى هذه الحالة... القانون الأعلى على المستوى السياسى، والقيمى، والدينى».**

وفى نفس الفصل، أفصح عن فكرته حول «الاحتفال بتلك الليلة المقدسة التى تنزل فيها القرآن على الرسول محمد ﷺ. إلا أن وفاته لم تمكنه من الإتيان بهذا الأمر. وبعد ٨٨ عامًا من موته، وقعت يد «راينر ماريا رايكليه» (١٨٧٥ - ١٩٢٦م) على «بعثة محمد» التى خرجت إلى النور فى باريس عام ١٩٠٧م.

«بعثة محمد»

حينما كان يتأمل فى الملكوت

جاءه الملاك على عجل

جاء مباشرة بصوت عالٍ ومعه النور

اضطرب الذى كان يعمل تاجرًا

فهو لم يقرأ من قبل - وقراءة

كلمة تعنى الكثير بالنسبة له

لكن الملاك أشار إليه

وأمره بقراءة ما هو مكتوب

ولم يُبَالِ وأمره ثانية: اقرأ

فقرأ، لدرجة أن الملاك انحنى

واستطاع القراءة

واستمع الأمر وبدأ طريقه

نظرة للمستقبل

لقد كان «جوته» ـ ولنبجله مرة أخرى فى خاتمة الكتاب ـ أول شاعر أوروبى مرموق منفتح على الإسلام، ومنفتح على القرآن، ومنفتح على العالم العربى بأسره، مستغلاً هذا الانفتاح لإخراج شعراء أوروبيين آخرين من عتمة العقول والأفكار. وبالرغم من تصوراته الإيجابية جداً حول الإسلام، وحبه الجارف للقرآن وللنبى محمد ﷺ ـ كما بيّنا فى صفحات الكتاب ـ إلا أننا لا نستطيع القول أبدًا بأنه فعل ذلك بدافع الرومانسية، فـ«جوته» لم يكن شاعراً رومانسيّا، بل كان واقعيّا، ينظر إلى العالم من منظور واقعى، ويرى من خلاله كم المخاطر التى تهدد سلامة البشرية فى حالة الاستقطاب بين الشرق والغرب.

لقد كان متبحراً فى تاريخ الكنيسة الأوروبية؛ وكان دائم التحدث عن الحروب الصليبية، وعن رؤيتها الأحادية المتمركزة حول المسيحية، والمنصبة على العداء لجميع أصناف البشر عدا المسيحيين؛ تلك الرؤية التى وصفها «جوته» بأنها «سدت علينا الأفق بقيودها». ومن ثم، أوصى «جوته» بقراءة تلك الحروب وما حدث فيها على يد كتّاب مستشرقين.

بدون شك، رأى «جوته» تشابهًا بين التاريخ الكنسى المسيحى وبين التاريخ الإسلامى؛ فكلاهما - حسب منظوره - لم يتبع معظمه النص الأصلى، كما ينبغى. بلغة أخرى، إن أى إنسان، ذى عقل رشيد وإيمان عـــال، لا بد وأن يرد تاريخ أى دين إلى أصل نص هذا الدين - إلى الأساس - ليعقد المقارنة بين ما حدث وبين ما كان يجب أن يحدث؛ ساعتها سيرى فارقًا كبيراً.

لقد أدرك «جوته» ما كان يفعله المتطرفون مع تابعيهم؛ كانوا يعلمونهم أموراً بعيدة كل البعد عن «النص الحقيقى الخالص» الذى أرسل به النبى «عيسى» أو النبى «محمد». لو كان «جوته» يعيش فى أيامنا هذه، لكان رفع صوته محتجًا ضد أولئك الذين يمثلون الدين أسوأ تمثيل، ثم يسمون أنفسهم بعد ذلك قادة روحيين. أولئك الذين يتكلمون باسم اليهودية، والمسيحية، والإسلام... الذين يُقلبون تابعيهم ضد بعضهم البعض، ويوغرون صدورهم ضد إخوانهم فى الإنسانية، فيشعلون الفتن بين الأديان الثلاثة، ثم يلقون بها فى أتون الحرب... بدلاً من أن يأخذوا بأيدى البشر جميعًا إلى الجبل المقدس؛ ليقوموا جميعًا بالصلاة إلى ربهم الواحد، ورب نبيهم إبراهيم الذى يخرجون جميعهم من نسله.

لقد لمس الشاعر الألمانى الهوة الكبيرة بين معتنقى الأديان وبين الرسالات الأصيلة والأصلية لتلك الأديان. فكتب يقول:

إذا قام المرء بتلاوة القرآن

فيذكر السورة ويذكر الآية

فكل مسلم مجبول ساعتها

على الإحساس بالسكينة والرهبة

الدراويش الجدد لا يعلمون أكثر

فليس لديهم إلا الثرثرة فى القديم والجديد

فيزداد الاضطراب يومًا بعد يوم

ما أقدس القرآن وما فيه من سكينة

لم يكن لومه منصبًا فقط على تشرذم المسلمين وابتعادهم عن أصل وروح الإسلام، ولكن انصب أيضًا على تشرذم المسيحيين وابتعادهم عن أصل روح المسيحية؛ مقارنًا بين ما كان عليه المسيحيون عند ميلاد المسيحية وبين ما صاروا عليه حينما تحولت الكنائس إلى سلطة سياسية لا يهمها إلا الاستحواذ على متاع الدنيا. بعد موته، وجدناه تاركًا لنا هذه الأبيات:

كل تاريخ الكنيسة

كان مزيجًا من الخبل والتحكم

من أكثر الأمور التى أثارت لديه الشجن والحزَن، الانقسام الذى حدث بين الكاثوليك والبروتستانت. ففى عام ١٨١٦م، كتب موضوعًا، انتقد

فيه الاحتفال الذى أرادت ولاية «فايمر» إقامته، بخصوص مرور ثلاثمائة عام على ثورة التصحيح التى قادها «مارتين لوثر». فبالرغم من كون «جوته» پروتستانتيّا فى الأصل، وبالرغم من نشأته فى وسط أسرة لوثرية، إلا أنه تعجب واندهش من موقف الپروتستانت - فى ذلك الوقت - الذين تناسوا الصدامات العنيفة والمؤسفة التى اندلعت بينهم وبين الكاثوليك منذ ثلاثة قرون. وقد يتساءل «جوته» هنا: كيف يمكن للمرء أن يفرح فى هذه المناسبة، وهو «يتذكر الانقسام المأساوى الذى حدث منذ عدة قرون»؟ كيف لنا - نحن الپروتستانت - أن نحتفل بذكرى ثورة التصحيح بمعزل عن إخواننا الكاثوليك الذين كنا نقف توّاً معهم منذ ١٤ يومًا، فى يوم ١٨ أكتوبر، لنحتفل معهم بذكرى وطنية.. ذكرى المذبحة الشعبية بـ «لايبتسيج»؟

اقترح «جوته» إقامة حفل كبير يجمع كل الأديان، سماه «حفل الإنسانية النقية». فى هذا الحفل لا يُسأل أحد عن دينه، أو عن معتقداته.

«الجميع يذهبون مع بعضهم البعض إلى الكنيسة، الجميع يعملون دائرة حول النار، الجميع يتلمسون الضوء من شعاع واحد، الجميع يرفعون أرواحهم، ليتذكر كلّ منهم عيده، فيحتفل به، ليس فقط المسيحيون، ولكن أيضًا اليهود والمحمديون».

لقد بقيت مقترحاته وأفكاره مجرد أحلام وآمال؛ لم تتحقق فى زمنه، كما لم تتحقق فى زمننا. إلا أن تحقيقها فى زمنه كان من المفترض أن يكون أيسر وأسهل من تحققها فى القرن الواحد والعشرين، حيث كانت

البشرية ـ غربها وشرقها ـ أكثر استعداداً للعمل بجدية على ترجمة تلك الأحلام إلى واقع ملموس. هذا بالإضافة إلى الجهود التى كان يبذلها فى عصره من أجل توسيع آفاق البشر ومداركهم، ومساعدتهم على تجاوز تحيزاتهم، وتحطيم عقولهم الأحادية. فتربت تحت يده أنبل العقول التى مشت وراءه فى نفس الطريق وفى نفس الركب. بل إن صداه قد وصل إلى أوروپا الشرقية، فبلغ مسامع أشهر الشعراء السلافيين: «ألكسندر بوشكين» (١٧٩٩ـ١٨٣٧م) الشاعر الروسى المعروف، و«آدم ميليفيكس» (١٧٩٨ـ١٨٥٥م) الشاعر البولندى الكبير. الاثنان اتبعا نفس المنهاج، منهاج «جوته» فى كتابته لـ «ديوان الغرب والشرق». فقاما بتأليف أشعار، أظهرا فيها تعاطفًا حقيقيّا وعميقًا تجاه العالم الإسلامى. ولم يصل صدى «جوته» إلى أوروپا الشرقية فقط، بل تجاوز القارة الأوروپية كلها، مخترقًا الشرق. . مخترقًا آسيا، وبالتحديد پاكستان، حيث الشاعر والفيلسوف المسلم «محمد إقبال» (١٨٧٧ـ١٩٣٨م) الذى ألّف فى «لاهور» تحفة فنية اسمها «سفارة الشرق». . . الصدى الصافى لـ «ديوان الغرب والشرق».

يا ليت البشرية ـ بغربها وشرقها ـ تنصت إلى أصوات هؤلاء العقلاء الأفذاذ، فتنظر إليهم نظرة التلميذ إلى معلمه، وتأخذ من أفواههم الحكمة والمثال. . بدلاً من إضاعة الوقت والطاقة والجهد فى التحدث عن تحيزات قديمة وعتيقة. إذا فعلت البشرية ذلك. . سيكون عالمنا بالتأكيد أفضل كثيراً مما هو عليه الآن.

الفهرس

الموضوع	الصفحة